ألبير كامو

الغريب

ترجمة: عايدة مطرجي إدريس



دار الآداب

ألبير كامو

الغريب

رواية

ترجمة عايدة مطرجي إدريس



دار الآداب للنشر والتوزيع

الغريب

الغريب

ألبير كامو/ روائي فرنسي

طبعة عام 2013

ISBN 978-9953-89-373-0



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

الغريب

القسم الأوّل

١

اليوم، ماتت أمّي. أو ربّما ماتت أمس، لست أدري. لقد تلقّيت برقيّة من المأوى تقول: «الوالدة توفّيت. الدفن غدًا. احتراماتنا». إنّ ذلك لا يعني شيئًا. ربّما كان ذلك أمس.

إنّ مأوى العجّز في مارنغو هو، على بعد أربعة وعشرين كيلو مترًا من مدينة الجزائر. سأستقلّ الأوتوبيس في الساعة الثانية، فأصل بعد الظهر. وهكذا أستطيع أن أسهر، وسأعود غدًا مساء. ولقد طلبت يومَيْ عطلة من معلّمي، ولم يكن يستطيع أن يرفض ذلك، وحجّتي هي هذه. ولكن يبدو عليه أنّه لم يكن مسرورًا، حتى إنّي قد قلت له: «ليس هذا من جرّاء غلطتي». فلم يجب. وفكّرت آنذاك أنّه ما كان ينبغي لي أن أقول له ذلك. وبالإجمال،

لم يكن عليّ أن أعتذر. بل كان الأجدر به أن يقدّم لي تعازيه. ولكنّه سيفعل ذلك، بلا شكّ، بعد غد، عندما يراني في الحداد. أمّا فيما يتعلّق بهذه اللحظة، فالأمر هو تقريبًا كما لو أنّ أمّي لم تكن قد ماتت. . وأمّا بعد الدفن، فسيكون الأمر على العكس قد طُوي، وسوف يتلبّس كلّ شيء مظهرًا رسميًّا أكثر من قبل.

استقللت الأوتوبيس في الساعة الثانية. كان الطقس حارًّا جدًّا. أكلت في المطعم، عند سيلست، كالعادة. كانوا جميعًا متألّمين جدًّا من أجلي. ولقد قال لي سيلست «ليس للمرء إلاّ أمّ واحدة». وعندما ذهبت، رافقوني نحو الباب. كنت شاردًا بعض الشيء، إذ كان عليّ أن أصعد عند إيمانويل لأستعير منه ربطة عنق سوداء وساعدة. لقد فقد عمّه، منذ عدّة شهور.

ركضت كي لا أفوّت وقت الذهاب. هذه العجلة، والركض، بالإضافة إلى الضجيج، ورائحة البنزين، وانعكاسات الطريق والسماء، كلّ ذلك هو الذي سبّب، بلا شكّ، إغفائي. نمت طوال الطريق تقريبًا. وعندما استيقظت كنت مكوّمًا على عسكريّ ابتسم لي وسألني إنْ كنت قادمًا من بعيد، فقلت: «نعم» حتى لا يكون عليّ أن أتكلّم بعد.

يبعد المأوى كيلومترين عن القرية، وقد قطعتُ الطريق مشيًا. أردت أن أرى أمّي على التوّ، ولكنّ

الحاجب قال لي إنّه يجب أن ألتقي المدير. ولمّا كان المدير مشغولاً، فقد انتظرت قليلاً. في هذه الأثناء، تكلّم الحاجب، ثم رأيت المدير، وقد استقبلني في مكتبه. إنّه رجل قصير مسنّ، ويحمل وسام الشرف. نظر إليّ بعينيه الصافيتين، ثم شدّ على يدي التي تركها طويلاً في يده حتى إنّني لم أكن أعرف كيف أسحبها. راجع ملفًّا وقال لي: «إنّ السيّدة مارسو دخلت هنا منذ ثلاث سنوات. وكنتَ سندَها الوحيد». اعتقدتُ أنّه يُعيب عليّ شيئًا فأخذت أشرح له. قاطعني: «ليس عليك أن تبرّر نفسك، يا ولدي العزيز. لقد قرأت ملفّ والدتك وأنّك لم تكن تستطيع أن تسعفها في حاجاتها. وقد كانت بحاجة إلى ممرّضة، ورواتبك متواضعة، وبعد كلّ حساب، كانت هنا أكثر سعادة». قلت: «أجل، يا سيّدي المدير». أضاف: «أنت تعلم، كان لها أصدقاء، أشخاص من عمرها. وكانت تستطيع أن تقاسمهم شؤونًا من عهد ماض. وأنت شابّ، ولا بدّ أنّها كانت تعاني الضجر معك».

كان ذلك صحيحًا. فعندما كانت أمّي في البيت، كانت تمضي وقتها وهي تتابعني بعينيها صامتة. وفي الأيّام الأولى التي نزلتْ فيها المأوى، كانت تبكي غالبًا. ولكنّ ذلك كان بسبب العادة. فبعد عدّة أشهر، كانت ستبكي لو أنّهم سحبوها من المأوى بسبب العادة أيضًا، ومن أجل

ذلك لم أزرها في السنة الماضية أبدًا تقريبًا، ثم لأنّ ذلك كان يأخذ منّي يوم الأحد، هذا إذا لم نحسب جهدَ الذهابِ في الأوتوبيس وقطع التذاكر والسفر ساعتين.

حدّثني المدير أيضًا. ولكنّني لم أكن أصغي إليه تقريبًا، ثم قال لي: «أفترض أنّك تريد أن ترى أمّك». نهضتُ من غير أن أقول شيئًا. تقدّم نحو الباب. وعلى السلّم، شرح لي: «لقد نقلناها إلى معرض الجثث الصغير، لكي لا نؤثّر في الآخرين؛ فكلّما مات مريض، ظلّ الآخرون ثائري الأعصاب يومين أو ثلاثة، وهذا ما يجعل الخدمة شاقّة». اجتزنا ساحة كان فيها كثير من المسنّين، وهم يثرثرون جماعات صغيرة، وكانوا صامتين عندما مررنا، وما لبثت الأحاديث أن استؤنفت خلفنا: إنّها ثرثرة ببغاوات تُصمّ. عند باب مبنى صغير، تركني المدير وقال لي: «أتركك، يا سيّد مارسو، إنّني تحت تصرّفك في مكتبي، أمّا الدفن فقد قُرّر مبدئيًّا عند الساعة العاشرة صباحًا. ولقد فكّرنا أنّك بذلك تستطيع أن تسهر على الفقيدة. كلمة أخيرة: يبدو أنّ أمّك قد عبّرت غالبًا لرفيقاتها عن رغبتها في أن تُدفن على الطريقة الدينيّة. وأخذتُ على عاتقي أن أقوم بكلّ ما هو ضروري. ولكنّني أردت أن أبلغك ذلك». شكرته، ولم تكن أمّي قد فكّرتْ في حياتها قطّ بالدين، بالرّغم من أنّها لم تكن ملحدة.

دخلتُ. كانت غرفة مشرقة جدًّا، مطليّة بالكلس ومسقوفة بالزجاج. وكانت مؤثّثة بالكراسي وبمساند بشكل ×. وكان اثنان منهما، في الوسط، يسندان نعشًا مغطّى بغطائه تبدو منهما فقط براغٍ لمّاعة، تكاد لا تكون مغروزة، وهي بارزة على ألواح من قشر الجوز. وبالقرب من النعش، كانت ثمّة ممرّضة عربيّة تقف وهي ترتدي قميصًا أبيض، وتربط رأسها بمنديل صارخ اللون.

في تلك اللحظة، دخل الحاجب من خلف ظهري. لا بدّ أنّه ركض، ودمدم قليلاً: «لقد غطّوها. ولكنّ عليّ أن أفكّ النعش حتى تستطيع أن تراها». كان يقترب من النعش عندما أوقفته، فقال لي: «ألا تريد؟» أجبت «لا». توقّف. كنت متضايقًا لأنّني كنت أحسّ أنّه لم يكن عليّ أن أقول ذلك. بعد فترة، نظر إليّ وسألني: «لماذا؟» ولكنْ من غير عتاب كما لو أنّه كان يستعلم. قلت: «لا أدري». عندها، فرك شاربه الأبيض، وقال من غير أن ينظر إليّ: «إنّني أفهم». كانت له عينان جميلتان، زرقاوان، وبشرة حمراء بعض الشيء. أعطاني كرسيًّا وجلس قليلاً خلفي. نهضت الممرّضة وتوجّهت نحو المخرج. عندها، قال لي الحاجب: «إنّها تشكو القرحة». ولأنّني لم أفهم، فقد نظرتُ إلى الممرّضة ورأيتُ أنّها تربط تحت عينيها رباطًا يحيط رأسها. على مستوى

الأنف، كانت الربطة مسطّحة. ولم يكن يُرى في وجهها سوى بياض الربطة.

عندما ذهبت، قال الحاجب: «سأتركك وحدك». لا أدري أيّة حركة قمت بها، ولكنّه ظلّ واقفًا خلفي. وكان هذا الحضور في ظهري يزعجني. كانت الغرفة مليئة بآخر شعاعات المساء الجميلة، وكان زنبوران يطنّان عند الزجاج. أحسستُ أنّ النعاس يتملّكني. قلت للحاجب، من غير أن ألتفت إليه: «هل مضى عليك وقت طويل وأنت هنا؟». ردّ عليّ في الحال كأنّه كان ينتظر سؤالي منذ زمن طويل: «خمس سنوات». ثم ثرثر كثيرًا. كان سيندهش كثيرًا لو قلت إنّه سوف ينتهي حاجبًا في مأوى مارنغو. كان يبلغ الرابعة والستّين من عمره، وكان باريسيًّا. في هذه اللحظة قاطعته سائلاً: «آه. ألست من هنا؟» ثم تذكّرت أنّه، قبل أن يقودني إلى المدير، كان قد حدّثني عن أمّي. قال لي إنّه يجب أن ندفنها بأقصى سرعة، لأنّ الحرّ كان شديدًا في السهل، وخصوصًا في هذا البلد. عندها أبلغني أنّه عاش في باريس وأنّه كان يجد صعوبة في نسيانها. ففي باريس يبقى الناس مع الميّت ثلاثة أيّام أو أربعة أحيانًا؛ أمّا هنا، فلا وقتَ لديهم لأنّهم لم يُخلقوا لفكرة أنّه يجب أن يركضوا خلف مركبة الموتى. عندها قالت له زوجته: «اسكت، إنّها ليست

أشياء جديرة بأن تُحكى للسيّد». احمرّ الرجل المسنّ واعتذر. تدخّلتُ لأقول: «ولكنْ لا، ولكنْ لا». كنت أجد أنّ ما كان يقوله صحيح ومفيد.

في مكان عرض الجثث، أبلغني أنّه سبق أن دخل المأوى كمعوز. وبما أنّه كان يحسّ نفسه مستوفيًا الشروط، فقد عرض نفسه لهذا المنصب كحاجب. لاحظت أنّه في نهاية الأمر كان هو أيضًا نزيلاً، فنفى ذلك. وكنت قد دهشت للطريقة التي يقول فيها: «هم الآخرون» ونادرًا جدًّا: «العجّز» وهو يتحدّث عن النزلاء الذين لم يكن بعضهم أكبر منه سنًّا. ولكن، بالطبع، لم يكن الأمر واحدًا؛ فقد كان حاجبًا، وكانت له حقوق عليهم، بشكلٍ ما.

في تلك الأثناء دخلت الممرّضة. كان الليل قد هبط فجأةً وبسرعة، ويتكاثف فوق الزجاج. فتح البوّاب زرّ الكهرباء فبُهرت بدفقات النور المفاجئة، ودعاني إلى غرفة الطعام للعشاء. ولكنّني لم أكن جائعًا. عندئذٍ عرض عليّ أن يحضر لي فنجانًا من القهوة بالحليب. وبما أنّني كنت أحبّ القهوة بالحليب كثيرًا، فقد قبلت. وعاد بعد فترة مع طبق. وشربت. وعندها أخذتني رغبة للتدخين ولكنّني تردّدت، لأنّني لم أكن أعلم إذا ما كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمّي. وفكّرت، لم يكن لهذا الأمر أيّة أهمّيّة،

وقدّمت سيجارة للبوّاب ودخّنّا.

وذات لحظة، قال لي: «أنت تعلم أنّ أصدقاء السيّدة أمّك سيأتون ليسهروا عليها أيضًا. إنّها العادة. وينبغي لي أن أذهب لأحضر الكراسي والقهوة السوداء». وسألته إذا كان بالإمكان إطفاءُ أحد القناديل. كان انعكاس النور على الجدران البيض يرهقني، وقال لي إنّ ذلك لم يكن ممكنًا؛ ذلك لأنّ تركيب الكهرباء كان مصنوعًا هكذا، فإمّا كلّ شيء أو لا شيء. ولم أعره كثيرًا من الانتباه بعد ذلك.. وخرج، وعاد، وصفّ الكراسي. وعلى أحد الكراسي تراكمت فناجينُ حول إبريق القهوة. ثم جلس يواجهني، من الجهة الأخرى من أمّي. وكانت الممرّضة أيضًا في الداخل، مديرةً ظهرَها، ولم أكن أرى ما كانت تفعله. ولكنْ من حركات ذراعيها كنت أستطيع أن أتصوّر أنّها كانت تشتغل بالصوف. كان الطقس لذيذًا.. وكانت القهوة قد أدفأتني، وكانت رائحة الليل والأزهار تتسلّل من الباب المفتوح. وأعتقد أنّني قد غفوت قليلاً.

أيقظني بعد ذلك حفيف: بدت لي الغرفة أشدّ بياضًا لكوني قد أغلقتُ عينيّ. أمامي، لم يكن يوجد أيّ ظلّ، وكان كلّ شيء، كلّ زاوية، كلّ انحناء، يرتسم بصفاءٍ جارحٍ للنظر. في هذه الأثناء بالذات دخل أصدقاء أمّي. كانوا في مجموعهم عشرة، وكانوا ينسلّون بصمت في هذا

النور الذي يُعمي. وقد جلسوا من غير أن يصرّ كرسيّ واحد. كنتُ أراهم كما لم أر شخصًا من قبل، ولم يفتني أيُّ تفصيل من وجوههم أو ملابسهم. ومع ذلك فلم أكن أسمعهم، ووجدتُ مشقّةً في تصديق واقعهم. فقد كانت جميع النساء تقريبًا يرتدين المرايل، وكانت الأحزمة التي تشدّها تُبرز بطونهنَّ المنتفخة. ولم أكن حتى الآن قد لاحظتُ إلى أيّ حدّ يمكن للنساء الهرمات أن تكون لهنّ بطون. وكان الرجال جميعهم تقريبًا نحيلين ويحملون العكّازات. والشيء الذي أدهشني في وجوههم هو أنّني لم أكن أرى عيونهم، بل محض بريقٍ من دون ألق وسط عشٍّ من التجاعيد. وعندما جلسوا، نظر إليّ أغلبهم وهزّوا رؤوسَهم بارتباك. كانت شفاههم كلّها قد أكلتها أفواهُهم الخاليةُ من الأسنان، من غير أن أستطيع أن أعرف إذا كانوا يسلّمون عليّ أو أنّ الأمر لا يتعدّى مجرّدَ ارتعاش، وأعتقد بالغالب أنّهم كانوا يسلّمون عليّ. في هذه اللحظة فقط لاحظتُ أنّهم كانوا يجلسون جميعًا بمواجهتي، يهدهدون رؤوسهم حول الحاجب. وراودني للحظة شعورٌ مضحكٌ أنّهم كانوا هنا ليحاكموني.

بعد فترة قصيرة، أخذتْ إحدى النساء تبكي. كانت في الصفّ الثاني، تخبّئها إحدى صديقاتها. ولم أكن أراها جيّدًا. كانت تبكي بصرخات قصيرة، منتظمة، وكان يبدو

لي أنّها لن تتوقّف أبدًا، وكان يبدو على الآخرين أنّهم لم يكونوا يسمعونها. كانوا مسترخين، حزينين وصامتين، كانوا ينظرون إلى النعش أو إلى عكّازاتهم أو إلى أيّ شيء آخر، ولكنّهم لم يكونوا ينظرون إلى غير ذلك. وكانت المرأة ما تزال تبكي، وكنت شديد الدهشة لأنّني لم أكن أعرفها. وددتُ لو أنّني لا أسمعها بعد، لكنّي لم أجرؤ على مصارحتها بذلك. انحنى الحاجب نحوها، وحدّثها، ولكنّها هزّت رأسها، وتمتمت بعض كلمات، وواصلتْ بكاءها بالانتظام نفسه. عندها تقدّم الحاجبُ نحوي، وجلس بالقرب منّي، وبعد فترة طويلة بعض الشيء، أبلغني من دون أن ينظر إليّ: «كانت متعلّقة جدًّا بالسيّدة والدتك. هي تقول إنّها كانت صديقتها الوحيدة هنا وإنّها لم يبق لها أحد الآن».

بقينا فترة طويلة هكذا. كانت تأوّهاتُ المرأة وشهقاتها تخفّ، وكانت تنخر كثيرًا. ثم سكتت. لم أكن أشعر بالنعاس بعد؛ كنتُ متعبًا وكانت كليتاي تؤلمانني. وكان صمت هؤلاء الناس جميعًا يرهقني في تلك الأثناء. من وقت لآخر، كنت أسمع فقط صوتًا منتظمًا لم أستطع أن أفهم ما كان في الواقع. بعد فترة طويلة، توصّلتُ إلى أن أحزر أنّ بعض العجّز كانوا يمصّون باطن خدودهم ويصعّدون هذه الطقطقةَ الغريبة. ولم يكونوا يَتَنَبَّهون إلى

ذلك لشدّةِ غرقهم في أفكارهم. وكان عندي شعور بأنّ هذه الميّتة، المسجّاة وسطهم، لم تْعِن شيئًا في نظرهم. ولكنِّي أعتقد الآن أنّ هذا الشعور لم يكن سوى انطباع خاطئ.

أخذنا جميعنا القهوة التي حضّرها الحاجب. ثم لم أعد أعرف شيئًا. مضى الليل. وأذكر أنّني فتحتُ عينيّ ذات لحظة ورأيتُ العُجّز ينامون مكوّمين بعضهم على بعض، باستثناء واحد، كان يسند ذقنه على صفحة يديه المتشبّثتين بالعكّاز، وينظر إليّ محدّقًا كأنّه لم ينتظر شيئًا سوى يقظتي. ثم نمتُ أيضًا، واستيقظتُ لأنّني أحسستُ بألم يزداد شيئًا فشيئًا في كليتي. كان النهار يتسلّل على الصحون الزجاجيّة. وبعد قليل استيقظ أحد العجزة وسعل كثيرًا. كان يبصق في منديل كبير ذي مربّعات، وكانت كلّ بصقة أشبهَ بالنزع. أيقظ الآخرين، فقال الحاجب إنَّ عليهم أن يذهبوا، فوقفوا. كانت هذه السهرة المتعبة قد جعلتْ لهم وجوهًا من الرماد. وعندما خرجوا شدّوا جميعًا على يدي، وسط دهشتي الكبرى، فكأنّ هذا الليل الذي لم نكن قد تبادلنا فيه أيّة كلمة قد عمّق صداقتنا.

كنت متعبًا. قادني الحاجب إلى بيته واستطعتُ أن أصلح شيئًا من هندامي. وتناولتُ أيضًا قهوة بالحليب؛ كانت لذيذة جدًّا. عندما خرجت، كان النهار قد بزغ

تمامًا. وفوق الروابي التي تفصل مارنغو عن البحر، كانت السماء مليئةً بالبقع الحمراء. وكانت الريح تمرّ فوقها، تحمل رائحةَ ملح. كان نهارٌ جميلٌ يتهيّأ. كان ذلك منذ زمن طويل عندما ذهبتُ إلى القرية وأحسستُ أيّة لذّة سأشعر بها في التنزّه لو لم تكن أمّي هناك.

لكنّني انتظرتُ في الساحة، تحت شجرة دلب. كنت أتنشّق رائحة الأرض النضرة، ولم أشعر بعدُ بالنعاس. فكّرتُ بزملاء المكتب. كانوا، في هذه الساعة، يستيقظون ليذهبوا إلى العمل؛ وكانت بالنسبة إليّ دائمًا أشدَّ الساعات مشقّةً. وفكّرتُ أيضًا بعض الشيء، ولكنّني كنت أتلهّى بجرس يرنّ داخل الأبنية. كانت هناك بلبلة خلف النوافذ، ثم هدأ كلّ شيء، وارتفعت الشمس أكثرَ من ذي قبل في السماء، وبدأت تدفّئ قدميّ. اجتاز الحاجب الساحة وقال لي إنّ المدير يطلبني. ذهبتُ إلى مكتبه، فجعلني أوقّع عددًا من الأوراق. لاحظتُ أنّه كان يرتدي السواد مع بنطال مخطّط. أخذ التليفون بيده واستجوبني: «إنّ عمّال مواكب الدفن حضروا هنا منذ برهة، وسأدعوهم لكي يحضروا فيغلقوا النعش، هل تريد أن ترى أمّك مرّة أخيرة؟» قلت لا. أمر بالتليفون وهو يخفض صوته: «فيجاك، قل للرجال إنّ بوسعهم أن يذهبوا».

ثم قال لي إنّه سيحضر الدفن فشكرتُه. جلس وراء

مكتبه، وشبّك ساقيه القصيرتين، وأعلمني أنّنا سنكون وحيدَيْن مع ممرّضة المأوى؛ فالنزلاء يجب أن لا يحضروا الدفن مبدئيًّا، إذ يتركونهم فقط يسهرون «ولاحظ أنّها مسألة إنسانيّة»، ولكنّه بصورة خاصّة سمح لأحد أصدقاء أمِّي القدماء ـ ويدعى توماس بيريز ـ بأن يرافق الموكب. هنا ابتسم المدير، وقال لي: «أنت تفهم، إنّه شعور صبيانيّ. ولكنّه وأمّك لم يفترقا قطّ. في المأوى، كانوا يتمازحون بشأنهما، ويقولون: «بيريز... إنّها خطيبتك»، وكان يضحك، وكان ذلك يسرّهم. موت السيّدة مارسو أحزنه جدًّا، ولم أتصوّر أنّني أملك الحقّ في أن أرفض أمر السماح له، ولكنّني منعتُه تلبيةً لنصيحة الطبيب الذي يزور المأوى، من أن يسهر البارحة».

بقينا صامتين وقتًا لا بأس به. نهض المدير ونظر من نافذة مكتبه، وذات لحظة، لاحظ قائلاً: «ها هو كاهن مارنغو، إنّه في المقدِّمة». أبلغني أنّه ينبغي أن نمشي ثلاثة أرباع الساعة، فنذهب إلى الكنيسة الواقعة في القرية. نزلنا. أمام المبنى، كان الكاهن مع صبيَّين من الجوقة كان أحدهما يحمل مبخرة، وكان الكاهن ينحني نحوه لكي يعدّل طول السلسلة الفضِّيّة. عندما وصلنا، قام الكاهن ووقف من جديد، وناداني: «يا بنيّ»، وقال لي بضع كلمات، ودخل، فتبعتُه.

رأيتُ دفعةً واحدةً أنّ براغي النعش دُقّت، وأنّه كان في القاعة أربعةُ رجال سود. وسمعتُ في الوقت نفسه المديرَ يقول لي إنّ العربة تنتظرني في الشارع، وإنّ الكاهن سيبدأ صلواته. منذ ذلك الوقت، تمّ كلّ شيء بسرعة فائقة. تقدّم الرجال من النعش وهم يحملون غطاء. وخرجنا، أنا والمدير والكاهن وأتباعه. أمام الباب، كانت هناك امرأة لم أعرفها. قال المدير: «السيّد مارسو». لم أسمع اسمَ هذه السيّدة، وفهمت فقط أنّها كانت ممرّضة منتدبة. أحنت وجهها المعظّم الطويل من غير أن تبتسم، ثم اصطففنا لنفسح للجثمان الطريق. تبعنا الحمّالين وخرجنا من المأوى. أمام الباب، كانت العربة، وكانت مدهونة ومستطيلة ولمّاعة، وتذكّر بالمقلمة. بالقرب منها، وقف المنظّم، وهو رجل قصير، يرتدي لباسًا مضحكًا، وهو مسنّ ذو مشية متصنّعة. وعرفتُ أنّه كان السيّد بيريز. كان يرتدي لبّادة رخوة ذات طاقيّة مستديرة وأجنحة عريضة، (وقد رفعها حين اجتاز النعشُ البابَ). كان بنطاله يشدّ على الحذاء، وعقدة قماش سوداء صغيرة أكثر ممّا يحتمله قميصُه ذو القبّة البيضاء الكبيرة. كانت شفتاه ترتجفان تحت أنف مزروع بالنقط السوداء. وكان شعره الأبيض الأملس بعض الشيء يُظهر أذنين مرتجفتين غير مستديرتين، يثيرني لونهما الأحمر القاني في هذا الوجه الشاحب. حدّد لنا المنظّمُ أمكنتَنا. تقدَّم الكاهن الموكب،

تلته العربة، وحولها الرجال الأربعة، وخلفها أنا والمدير، وكانت الممرّضة المنتدبة والسيّد بيريز يختمان الموكب.

كانت السماء قد امتلأت شمسًا وبدأتْ تثقل على الأرض، والحرارة ترتفع بسرعة. ولم أدر لماذا انتظرنا طويلاً بعض الشيء قبل أن نبدأ بالمسير. كنتُ قد بدأت أشعر بالحرّ تحت ثيابي الداكنة اللون. أمّا الشيخ القصير الذي كان مغطّى الرأس، فقد انتزع من جديد قبّعته. التفت قليلاً لجهته. نظرتُ إليه عندما حدّثني المدير عنه. قال لي إنّ أمّي غالبًا ما كانت تخرج مع السيّد بيريز ليتنزّها مساءً حتى القرية، تُرافقهما ممرّضة. نظرتُ إلى الريف حولي، من خلال صفّ السرو الذي كان يقود إلى الروابي قريبًا من السماء، ومن هذه الأرض البرصاء والخضراء، وهذه البيوت النادرة، والواضحة، كنتُ أفهم أمّي. فالمساء، في هذا البلد، لا بدّ أنّه كان أشبه بهدنة كئيبة. واليوم ها هي الشمس الطاغية، التي تحيل المنظر لاإنسانيًّا ومحبطًا.

بدأنا المسير. في هذه الأثناء فقط لاحظتُ أنّ بيريز كان يعرج قليلاً. أخذت العربة تسرع شيئًا فشيئًا، وأخذ الشيخ يقصّر. كان أحد الرجال الذين يحيطون بالعربة قد سمح بأن يتجاوزه أيضًا، وبات يمشي الآن بجانبي. كنت دهشًا من السرعة التي كانت الشمس ترتفع فيها في السماء. لاحظتُ أنّ القرية قد كانت، منذ زمن طويل،

تطنّ بنشيد الحشرات وبزفير الأعشاب. كان العرق يسيل على خدَّيّ. ولمّا لم أكن قد أحضرتُ قبّعة، فقد كنت أتروّح بمنديلي. عندها قال لي عاملُ الموكب الجنائزيّ شيئًا لم أسمعْه. في الوقت نفسه، كانَ يمسح رأسه بمنديل يمسكه بيده اليسرى، بينما كانت يده اليمنى ترفع طرف قبّعته سألته: «ماذا؟» ردّد وهو يشير إلى السماء: «إنّها تضرب». قلت: «نعم». بعد قليل سألني: «هل هي أمّك التي هنا»؟ قلت أيضًا «نعم». سألني: «هل كانت عجوزًا؟» أجبت «تقريبًا»، لأنّني لم أكن أعرف السنّ بدقّة. ثم سكت. التفتُّ ورأيت بيريز العجوز متخلّفًا وراءنا بخمسين مترًا. كان يُسرع وهو يؤرجح طاقيّته في طرف ذراعه. نظرتُ أيضًا إلى المدير. كان يمشي بكثير من الهيبة، بحركة مدروسة: وكانت بضع نقطٍ من العرق تلمع على جبهته، ولكنّه لم يمسحها.

كان يبدو لي أنّ الموكب يتقدّم بسرعة أكثر من قبل.

وكانت تحيط بي دائمًا القرية نفسها المضاءة المغمورة بالشمس، وكان وهج السماء لا يُحتمل. وذات لحظة، مررنا على قسم من الطريق أُعيد تمهيدها. وكانت الشمس قد فجّرت القطران، الأقدام تنغرس فيها وتترك لبّها اللمّاع مفتوحًا. وفوق العربة، كانت قبّعة السائق، من الجلد الذي يغلي، تبدو وكأنّها جُبلتْ بهذا الوحل الأسود. كنت ضائعًا

بعض الشيء بين السماء الزرقاء والبيضاء ورتابة هذه الألوان، الأسود اللزج من الزفت المكشوف، وأسود الملابس الكدر، وأسود العربة المدهون. وكانت الشمس، ورائحةُ الجلد والروث المنبعثة من العربة، ورائحةُ الدهان والبخور، وتعبُ ليلة من الأرق، تعكّر نظري وتشوّش أفكاري. التفتّ مرّةً أخرى: بدا لي بيريز بعيدًا جدًّا، ضائعًا وسط ضباب من الحرّ، ثم لم أعد أراه. فتّشتُ عنه بناظري، ورأيت أنّ الطريق كانت تدور أمامي. فهمتُ أنّ بيريز الذي يعرف الطريق كان يقطع أقصر الدروب لكي يدركنا. وعند المنعطف كان قد التقى بنا. ثم أضعناه. وكان يتّخذ طريقه أيضًا خلال الحقول، وهكذا عدّة مرّات، وكنت أحسّ بالدم يضرب صدغي.

ثم تمّ كلّ شيء بسرعة ويقين وطبيعيّة، إلى درجة أنّني لم أعد أذكر سوى حادثة فقط: فعند مدخل القرية، حدّثتني الممرّضة المنتدبة، بصوت فريد لا ينسجم مع وجهها، صوت منغّم ومرتعش. قالت لي: «إذا نحن مشينا ببطء، فإنّنا نخشى ضربة الشمس؛ أمّا إذا أسرعنا أكثر ممّا ينبغي، فإنّنا سنعرق وسنكون عرضةً في الكنيسة للحرّ والبرد». كانت على حقّ. ولم يكن ثمّة مخرج. ولقد احتفظت أيضًا ببعض الصور من هذا اليوم: منها مثلاً وجهُ بيريز، عندما التقانا لأوّل مرّة أمام القرية. كانت دمعات

كبيرة من التأثّر والتعب تنحدر على خدّيه، ولكنّها لم تَسِلْ، بسبب التجاعيد، بل تنتشر وتلتقي وتشكّل طلاءً من الماء على هذا الوجه المتهدّم. وكان هناك أيضًا الكنيسة والقرويّون على الأرصفة، والغرنوقيّات الحمراء على توابيت المقبرة، وإغماءُ بيريز (وكان كدمية متحرِّكة قُطع خيطُها)، والأرضُ المصطبغةُ بلون الدم التي كانت تتدحرج على نعش أمِّي، ولُبّ الجذور الأبيض الذي كان يمتزج بها، والناسُ أيضًا، والأصوات، والقرية، والانتظارُ أمام قهوة، وشخيرُ المحرّك الذي لا ينقطع، وفرحتي عندما دخل الأوتوبيس عشَّ ضوء مدينة الجزائر، وتفكيري بأنّني سوف أستلقي وأنام اثنتي عشرة ساعة.

٢

حين استيقظت، عرفت لماذا كان معلّمي مستاءً عندما طلبتُ منه يومَيْ عطلة. فاليوم هو السبت. وكنت قد نسيت ذلك، إذا صحّ التعبير. ولكنْ عندما نهضت، أتتني تلك الفكرة: لقد فكّر معلّمي، بالطبع، أنّني سأنال أربعة أيّام من العطلة مع يوم الأحد. وهذا لا يمكن أن يجلب له السرور. ولكنْ، من جهة، لم تكن غلطتي أنْ دفنوا أمّي البارحةَ بدل اليوم. ومن جهة أخرى، سيكون لي السبت والأحد على كلّ حال. على أنّ ذلك لا يمنعني طبعًا من أن أفهم معلّمي.

أحسستُ بالتعب وأنا أنهض لأنّني كنت تعبًا من البارحة. وبينما كنتُ أحلق ذقني، تساءلتُ ماذا ينبغي لي أن أفعل، وقرّرتُ أن أذهب للسباحة. أخذتُ الترام

لأذهب إلى مؤسّسة حمّامات المرفأ، وهناك غطستُ في المضيق. كان ثمّة كثير من الشباب. ولقيتُ في الماء ماري كاردونا، وهي فتاة كانت تضرب على الآلة الكاتبة قديمًا في مكتبي، وكنت قد رغبت فيها في ذلك الوقت. أظنّ أنّها، هي أيضًا، كانت ترغب فيَّ، ولكنّها رحلتْ بعد فترة قصيرة، فلم نجد متّسعًا من الوقت. ساعدتُها لتصعد على عوّامة؛ وبهذه الحركة، لامستُ نهديْها. كنتُ ما أزال في الماء عندما كانت تستلقي على بطنها على العوّامة. التفتتْ نحوي: كان شعرُها يغطّي عينيها وكانت تضحك. تسلّقتُ بالقرب منها على العوّامة. كان الطقس جميلاً. تركتُ رأسي ينحدر إلى الوراء ووضعتُه، وكأنّني أمزح، على بطنها. لم تقل شيئًا. بقيتُ هكذا. كانت السماء كلّها في عينيّ، وكانت زرقاء ومذهّبة. وتحت رقبتي، كنت أحسّ بطن ماري ينبض على مهل. بقينا طويلاً على العوّامة، ونحن نصف نائميْن. وعندما غدت الشمس حامية أكثر ممّا ينبغي، غطستْ في الماء فتبعتُها. قبضتُ عليها، وأمررتُ يدي حول جسمها وسبحنا معًا. كانت ما تزال تضحك. وعلى الشاطئ، بينما كنّا نتجفّف، قالت لي: إنّني أشدّ سمرةً منك. وسألتها إنْ كانت تريد أن تأتي إلى السينما، عند المساء. فضحكتْ وقالت لي إنّها كانت ترغب في مشاهدة فيلم لفيرنانديل. عندما ارتدينا ملابسنا، كانت دهشةً جدًّا عندما رأتني أضع ربطة عنق سوداء وسألتني إن

كنت في حالة الحداد. قلت لها إنّ أمّي ماتت. وحين سألتني متى حدث ذلك، أجبت: «أمس». تراجعتْ قليلاً، ولكنّها لم تفه بأيّة ملاحظة. وكانت بي رغبة في أن أقول لها إنّ ذلك لم يكن نتيجةَ غلطةٍ منّي، ولكنّني امتنعت، لأنّني فكّرتُ بأنّني قلتُ ذلك لمعلّمي. ومهما يكن من أمر، فنحن دائمًا مخطئون بعض الشيء.

في المساء، كانت ماري قد نسيتْ كلّ شيء. كان الفيلم مضحكًا في بعض الأحيان، ثم إنّه كان في الواقع بليدًا أكثر ممّا ينبغي. كانت ساقها بلصق ساقي. وكنت ألامس نهديها. وقبل نهاية الحفلة، قبّلتها، ولكنْ قبلة سيّئة. وعندما خرجنا أتت إلى شقّتي.

عندما استيقظتُ، كانت ماري قد ذهبت وكانت قد شرحت لي أنّه كان عليها أن تذهب إلى خالتها. فكّرتُ في أنّ اليوم كان يوم أحد، وكان ذلك يضجرني؛ فأنا لا أحبّ يوم الأحد. وإذ ذاك عدت إلى سريري، وفتّشت في الوسادة عن رائحة الملح الذي كان شعرُ ماري قد خلّفه، ثم نمتُ حتى العاشرة. بعد ذلك دخّنت سجائر، وأنا ما أزال مستلقيًا حتى الظهر. لم أكن أرغب في الغداء عند سيليست كالعادة؛ فبالتأكيد، سوف تُطرح عليّ أسئلة، وأنا لا أحبّ ذلك. سلقتُ بيضًا وأكلتُه دفعةً واحدة، بلا خبز، لأنّني ما كنت أملك خبزًا بعد، ولأنّني لم أكن أودّ أن أنزل لأشتري ذلك.

بعد الغداء، ضجرتُ قليلاً وتهتُ في الشقّة. كانت الشقّة مريحة عندما كانت أمّي هنا، أمّا الآن، فإنّها أكبر ممّا ينبغي بالنسبة إليّ. وقد اضطررتُ إلى أن أنقل إلى غرفتي طاولةَ غرفة الطعام؛ فأنا لا أعيش بعدُ إلّا في هذه الغرفة، بين كراسي القشّ المجوّفة قليلاً، والخزانةِ ذات المرآة المصفرّة، وطاولةِ الحلاقة، والسريرِ النحاسيّ. أمّا كلّ ما تبقّى فكان مهملاً. بعد مدّة، ولكي أقوم بعمل ما، أخذتُ جريدة قديمة وقرأتها. قطعتُ منها إعلانًا عن أملاح كروشن، وألصقتُه في دفتر قديم أضع فيه الأشياء التي تُطرفني في الجرائد. غسلتُ أيضًا يديّ. وأخيرًا وقفتُ على الشرفة.

غرفتي تطلّ على الشارع الرئيس من ضاحية المدينة. كان الطقس، بعد هذا الظهر، جميلاً؛ ومع ذلك، فإنّ البلاط كان لزجًا، وكان الناس نادرين، وفي عجلة من أمرهم. كانوا في بادئ الأمر أُسَرًا تتنزّه، وصبيّين صغيرين يرتديان لباسًا بحريًّا، نزل سروالُ كلٍّ منهما إلى تحت الركبتين، وكانا مرتبكين في ثيابهما الخشنة بعض الشيء. وكانت ثمّة فتاة صغيرة عُقد شعرُها بشريط خشن أزهر اللون، وهي تنتعل حذاء لمّاعًا. وخلفهم، كانت تسير أمّ ضخمة، ترتدي فستانًا من الحرير كستنائي اللون. أمّا الأب، وهو رجل قصير نحيل بعض الشيء، فكنتُ أعرفه

بالرؤية، كان يرتدي لباسَ البحريّة وربطةَ عنق، ويحمل بيده عصاه. وإذ رأيته مع زوجته، فهمت لماذا كانوا يقولون عنه في الحيّ إنّه كان رجلاً معتبرًا. وبعد فترة مرّ شبّان الضاحية، بشعورهم اللمّاعة وربطات أعناقهم الحمراء وستراتهم المحصورة جدًّا، والمناديل المطرّزة، والأحذية ذات المقدِّمة المربّعة. وفكّرتُ في أنّهم كانوا ذاهبين إلى دُور سينما المركز. من أجل ذلك كانوا يبكّرون في الذهاب، وكانوا يسرعون نحو الترام مقهقهين.

بعد مرورهم، غدت الطريق مقفرةً شيئًا فشيئًا. كانت المشاهد، كما أعتقد، قد ابتدأتْ في كلّ مكان. ولم يكن في الطرق بعدُ إلّا أصحاب الحوانيت والهررة، وكانت السماء صافية ولكنْ من دون ألق فوق الأشجار التي تزيّن الطريق. على الرصيف المقابل، أخرج بائعُ التبغ كرسيًّا، ووضعه أمام بابه، ثم اعتلاه وهو يستند بذراعيه إلى ظهره. كانت عربات الترام الغاصّة بالركّاب، منذ فترة، فارغةً الآن تقريبًا. وفي القهوة الصغيرة، «شي بيارو»، بالقرب من بائع التبغ، كان الصبي يكنّس النشارة في القاعة الخالية. كان ذلك يوم الأحد حقًّا.

أدرتُ كرسيّي ووضعتُه ككرسيّ بائع التبغ، لأنّني وجدت أنّ ذلك أنسب. أشعلتُ سيجارتين، ودخلت لآخذ قطعةً من الشوكولا وعدتُ لآكلها عند النافذة. بعد قليل

أظلمت السماء، واعتقدت أنّنا سوف نشهد عاصفة من عواصف الصيف، ولكنّها، راحت تنقشع شيئًا فشيئًا. غير أنّ مرور الضباب خلّف على الشارع ما يشبه وعدًا بالمطر أحاله أشدَّ ظلمةً. وبقيتُ طويلاً أنظر إلى السماء.

عند الساعة الخامسة، وصلتْ قافلةُ الترام في ضجيج، وكانت تعيد، من ملعب الضاحية، عناقيدَ من المشاهدين الذين تسلّقوا السلالمَ والنوافذ. أمّا قافلة الترام التالية فقد أعادت اللاعبين الذين عرفتُهم من حقائبهم الصغيرة. كانوا يزعقون ويُنشدون بملء حناجرهم أنّ ناديهم لن يهلك. ولقد أرسل إليّ بعضُهم إشارات، بل إنّ أحدهم صرخ لي قائلاً: «لقد انتصرنا عليهم». هززتُ رأسي وأنا أقول: «نعم». وابتداءً من تلك اللحظة أخذت السيّارات تتوافد.

تقدّم النهار قليلاً، وأصبحت السماء حمراء، فوق السطوح. ومع المساء البازغ، أخذت الطرقات تعجّ. وراح المتنزّهون يعودون شيئًا فشيئًا، فعرفتُ من بينهم السيّد المعتبر. وكان الأطفال يبكون أو يستسلمون للجرّ. وفي الوقت نفسه تقريبًا، أَفرغتْ دُورُ الحيّ السينمائيّة في الطريق موجةً من المشاهدين، ومن بينهم شباب كانوا يقومون بحركات واثقة أكثر من العادة، وفكّرت في أنّهم قد شاهدوا فيلمَ مغامرات. وكان الذين يعودون من دُور سينما

المدينة يصلون متأخّرين قليلاً، ويبدون أكثرَ رزانةً. كانوا ما يزالون يضحكون، ولكنّهم كانوا يبدون، من وقت إلى آخر، متعبين وحالمين. وقد ظلّوا في الشارع، يروحون ويجيئون على الرصيف المقابل. وكانت صبايا الحيّ يتماسكن بالأذرع، مرسلاتِ الشعر. وكان الشبّان قد أخذوا تدابيرهم لكي يلتقوا بهنّ، وكانوا يطلقون مزاحًا تضحك له الفتيات وهنّ يُدرن رؤوسهنّ. وقد بعث إليّ بعضهنّ إشاراتٍ، وكنتُ أعرفهنّ.

إذ ذاك، أُشعلتْ مصابيحُ الشارع فجأةً، فجعلت النجومَ الأولى التي كانت تصعد في الليل باهتةً صفراء. أحسستُ بأنّ عينيّ تعبتا من النظر إلى الأرصفة بحمولتها من الرجال والأنوار. كانت المصابيح تلمّع البلاط المبلّل، وكانت قافلة الترام ـ لمسافات محدّدة ـ تعكس شعاعاتها على الشعور الملمّعة، وعلى بسمة أو سوار من الفضّة. بعد قليل، خفّت القافلاتُ وهبط ليلٌ أسودُ فوق الأشجار والمصابيح، فأخذ الحيّ يُقْفر رويدًا رويدًا، حتى الوقت الذي بدأ فيه أوّل قطّ يجتاز ببطء الشارع المقفر من جديد. فكّرتُ آنذاك أنّه يجب أن أتناول العشاء. كنتُ أشكو ألمًا خفيفًا في رقبتي من جرّاء بقائي طويلاً مستندًا إلى ظهر كرسيّ. نزلتُ لأشتري خبزًا وعجينًا. صنعتُ طعامي وأكلتُ واقفًا. أردتُ أن أدخّن سيجارةً عند

النافذة، لكنّ الهواء كان قد ترطّب، فأحسستُ ببعض البرد. أغلقتُ نوافذي ورأيت في المرآة، وأنا عائد، طرفًا من الطاولة كان مصباحُ السبيرتو يجاور عنده قطعًا من الخبز. فكّرتُ أنّه كان يومَ أحد انقضى، وأنّ أمّي كانت الآن مدفونة، وأنّني سأستعيد عملي، وأنّ شيئًا، بالإجمال، لم يكن قد تبدّل.

٣

اليوم، عملتُ كثيرًا في مكتبي، وكان المعلّم لطيفًا. سألني إذا لم أكن قد تعبتُ أكثر ممّا ينبغي، وأراد أيضًا أن يعرف عمر أمّي. قلت: «في الستّين تقريبًا» لكي لا أخطئ. ولا أدري لماذا بدا عليه أنّه قد تعزّى، وأنّه يعتبر القضيّة منتهية.

كانت على طاولتي كومةٌ من الإيصالات، وكان عليّ أن أنظر فيها كلّها. قبل أن أغادر المكتب لتناول الغداء، غسلتُ يديّ. الظهر: أحبّ كثيرًا هذا الوقت. أمّا في المساء، فإنّ سروري أخفّ لأنّ المنشفة الملفوفة التي تستعملها تكون مبلّلة تمامًا؛ بعد أن تكون قد استُخدمت طوال اليوم. ولقد أبديتُ هذه الملاحظة يومًا لمعلّمي، فأجابني أنّه يجد ذلك مؤسفًا، ولكنّه يرى، بأنّه كان

تفصيلاً لا أهمّيّة له. خرجتُ متأخّرًا قليلاً، في الساعة الثانية عشرة والنصف مع إيمانويل الذي يعمل في الشحن. كان المكتب يطلّ على البحر، ولقد أضعنا وقتًا ونحن ننظر إلى سفينة البضائع في المرفأ الذي تلهبه الشمس. في تلك الأثناء، وصلت شاحنة، مصحوبة بضجيج من السلاسل والانفجارات. وسألني إيمانويل إنْ كنّا سنذهب، وأخذت أركض. كانت الشاحنة قد تجاوزتنا، فاندفعنا في أثرها. كنت غارقًا في الضجّة والغبار. ولم أكن أرى شيئًا ولا أحسّ إلَّا باندفاع الركض الأهوج، وسط آلات رفع الأثقال والماكينات والصواري التي كانت ترقص في الأفق، وحطام السفن التي كنّا نمرّ أمامها. كنت أوّل من تسلّق، فقفزتُ بسرعة. ثم ساعدتُ إيمانويل على الصعود. ولم نكن نستطيع التنفّس. كانت الشاحنة تقفز على بلاطات المرفأ غير المتساوية وسط الغبرة والشمس كان إيمانويل يضحك حتى يكاد يختنق.

وصلنا، ونحن نسبح في العرق، عند سيلست. كان ما يزال هناك، ببطنه المنتفخ، ومريوله، وشاربه الأبيض. سألني «إذا كانت الأمور تجري بالرّغم من كلّ شيء» فقلت له أنْ نعم وإنّني كنت جائعًا. أكلت بسرعة وتناولتُ قهوة ثم عدت إلى شقّتي، ونمت قليلاً لأنّني كنت قد شربت أكثر ممّا ينبغي من الخمر. عندما استيقظتُ، كانت بي

رغبة في التدخين. كان الوقت متأخّرًا، وقد ركضتُ لألحق الترام. وعملت بعد الظهر كلّه. كان الحرّ شديدًا في المكتب، وفي المساء، عندما خرجت، كنتُ سعيدًا جدًّا بأن أعود متمهّلاً بمحاذاة الضفاف. كانت السماء خضراء، وكنت أحسّني مسرورًا. ومع ذلك، فقد عدت رأسًا إلى البيت لأنّني وددتُ أن أهيّئ بطاطا مسلوقة.

اصطدمتُ، وأنا أصعد السلّم المظلم، بالشيخ سالامانو، جاري. كان بصحبة كلبه. منذ ثماني سنوات يراهما الناس معًا. كان الكلب مُصابًا بمرض جلديّ، الحمرة، على ما أعتقد، يُذيب وبرَه كلّه ويغطّيه بطبقات من القشر الأسمر. ولكثرة ما عاش معه، وحيدين في غرفة صغيرة، انتهى الشيخ سالامانو بأن يشبهه: فعلى وجهه قشرٌ أحمر، وله وبر أصفر نادر. أمّا الكلب فقد أخذ عن معلّمه نوعًا من المشية المقوّسة يمتدّ فيها فكُّه نحو الأمام ويتطاول عنقه. كانا يبدوان وكأنّهما من فصيلة واحدة، ومع ذلك، فإنّهما يتباغضان. يقود الشيخ كلبه، مرّتين في اليوم، في الساعة الحادية عشرة وفي الساعة السادسة، للتنزّه. منذ ثماني سنوات، لم يغيّرا طريقهما؛ فبالإمكان رؤيتُهما على طول شارع ليون والكلبُ يسحب الرجلَ حتى يتعثّر، فيضربه ويهينه. يستسلم الكلب خوفًا ويترك معلّمه يجرّه. في هذه الأثناء، يأتي دور الشيخ في سحبه.

وعندما ينسى الكلب، يسحب معلّمَه من جديد، فيُضربُ من جديد ويُهان. عندها، يتوقّف الاثنان على الرصيف ويتبادلان النظرات: الكلب بخوف، والرجل بحقد. ويستمرّ ذلك كلّ يوم. وعندما يريد الكلب أن يبوّل، فإنّ الشيخ لا يتيح له الوقتَ ليفعل، ويشدّه. فيزرع الكلبُ وراءه سيلاً من النقط الصغيرة. وإذا اتّفق أن وسّخ الكلب في الغرفة، فإنّه يُضرب أيضًا. وإنّ ذلك ليستمرُّ منذ ثماني سنوات. يقول سيلست دائمًا: «إنّ هذا الأمر مؤسف» ولكن، لا أحد يستطيع أن يعرف بالضبط. فعندما لاقيتُ سالامانو عند السلّم، كان يَشْتم كلبه قائِلاً: «إنّك قذر، جيفة!» وكان الكلب يئنّ. قلت: «مساء الخير» ولكنّ الشيخ ظلّ يشتم. وإذ ذاك سألتُه عمّا فعله الكلب، فلم يجبني. كان يكتفي بالقول: «قذر، جيفة!» كنتُ أتمثّله، منحنيًا على كلبه، يُصلح شيئًا على رقبته. وتكلّمتُ بقوّة أكثر من قبل. فأجابني من غير أن يلتفت، وبنوع من الغضب المكبوت: «إنّه ما يزال هنا». ثم مضى وهو يشدّ الحيوان، الذي استسلم للجرّ على قوائمه الأربع وهو يئنّ.

في هذا الوقت تمامًا دخل جاري الثاني. وقد كانوا في الحيّ يقولون عنه إنّه يتعهّد نساء، وحين يُسأل عن مهنته، يُجيب بأنّه «حانوتيّ». وبالإجمال فهو ليس محبوبًا على الإطلاق، ولكنّه يحدّثني غالبًا، وأحيانًا يُمضي عندي

بعض الوقت لأنّني أستمع إليه، وأجد أنّ ما يقوله مثير. والحقّ أنِّي لا أملك حجّة لكي لا أحدّثه. إنّه يُدعى ريمون سانتيس. وهو قصير بعض الشيء، عريضُ الكتفين، بأنف ملاكم، وهو دائمًا أنيق اللباس. وقد قال لي هو أيضًا، متحدِّثًا عن سالامانو: «أليس ذلك محزنًا؟» وسألني إنْ لم يكن في ذلك ما يدعوني إلى الاشمئزاز فنَفيتُ.

صعدنا، وكنتُ على وشك أن أتركه حين قال لي: «إنّ عندي مقانق وخمرًا. هل تريد أن تأكل قطعة معي؟» فكّرتُ بأنّ ذلك يجنّبني إعداد الطبخ، فقبلتُ. ولم يكن هو أيضًا يملك سوى غرفة واحدة، مع مطبخ بلا نافذة. وفوق سريره، كان معلّقًا ملاك من الرخام الأبيض والورديّ، وصورُ أبطالٍ، وصورتان أو ثلاث لنساء عاريات. وكانت الغرفة وسخةً، والسرير مدعوكًا. أشعل أوّلاً قنديلَ الكاز، ثم أخرج من جيبه رباطًا يثير الشكّ ولفّ به يده اليمنى. فسألته عمّا يشكو، فقال لي إنّه قد تشاجر مع شخص كان ينوي به سوءًا.

وقال لي: «إنّك تعلم، يا سيّد مارسو، لا لأنّني شرِّير ولكن لأنّني حيوي». وقد قال لي الآخر: «انزل من الترام إنْ كنت رجلاً». وأجبته: «كفى، وكن هادئًا». فأجابني أنّني لست رجلاً. عندها نزلت، وقلت له: «كفى،

هذا أفضل لك وإلّا أنضجتك». أجابني: «بأيّ شيء؟» وعندها ناولتُه ضربةً، فوقع. تقدّمتُ لأرفعه. ولكنّه ركلني وهو على الأرض. وإذ ذاك ضربتُه بركبتي مرّة، وبالعصا مرّتين. كان وجهه داميًا، سألته إن كان قد استوفى حسابه، فأجابني «نعم».

طوال هذا الوقت، كان سانتيس يلفّ رباطه. كنتُ جالسًا على السرير. قال لي: «أنت ترى أنّني لم ألتمس الشرّ، وإنّما هو الذي خسرني». كان ذلك صحيحًا، وقد أقررتُ به. عندها قال إنّه يريد، بالضبط، أن يسألني نصيحةً في موضوع هذه القضيّة، لأنّني، كنت رجلاً، وكنت أعرف الحياة، فلم أقل شيئًا، وإنّني كنت أستطيع أن أساعده فيصبح فيما بعد رفيقًا لي. وسألني أيضًا إن كنت أريد أن أصبح رفيقًا له. فقلت له إنّ الأمرين لديّ سواء. سُرَّ بالأمر، وأخرج بعض المقانق، وطبخه على الموقد، ووضع أقداحًا وصحونًا ومناشف وزجاجتين من النبيذ. فعل كلّ ذلك بصمت. ثم جلسنا. وبينما كنّا نأكل، ابتدأ يروي لي قصّته متردّدًا قليلاً في بادئ الأمر: «عرفت سيّدة.. ويمكن أن أقول إنّها كانت عشيقتي». والرجل الذي كان قد اقتتل معه هو شقيق هذه المرأة. قال لي إنّه أنفق عليها؛ ولم أجب بشيء. ومع ذلك فقد أضاف في الحال بأنّه كان يعلم ما يُقال في الحيّ، ولكنّه

كان مرتاح الضمير، وكان حانوتيًّا.

قال لي: «لكي نعود إلى قصّتنا، لاحظت أنّه قد كان هنالك خداع». كان يعطيها كفافَ عيشها. لا أكثر. وكان يدفع إيجار الغرفة ويعطيها عشرين فرنكًا في اليوم للطعام. ثلاثمائة فرنك للغرفة، وستمئة فرنك للطعام، وجورب بين وقت وآخر، وكان ذلك يساوي ألف فرنك. لم تكن السيّدة تعمل، «ولكنّها كانت تقول لي إنّ ما كنت أعطيها إيّاه يكاد لا يكفي. غير أنّي كنت أقول لها: لماذا لا تعملين نصف نهار؟ فإنّك تخفّفين عليّ كثيرًا من هذه الأشياء الطفيفة. لقد اشتريتُ لك ثوبًا هذا الشهر، وأدفعُ لك عشرين فرنكًا في النهار، وأدفعُ لك بدل الإيجار، وأنت تشربين القهوة بعد الظهر مع صاحباتك. إنّك تعطيهنّ القهوة والسكّر، وأنا أعطيك المال. لقد أحسنتُ التصرّفَ معك، وأنت تكافئينني بصورة رديئةً. ولكنّها لم تكن تعمل؛ وكانت تقول دائمًا إنّها لم تكن تتدبّر الأمر. وهكذا لاحظت أنّه قد كان هناك خداع».

عندها روى لي أنّه وجد في حقيبتها ورقة يانصيب، وأنّها لم تستطع أن تشرح له كيف كانت قد اشترتها. وبعد فترة، وجد عندها «ورقةً» من مؤسّسة التسليف تُثْبت أنّها كانت قد رهنتْ سِوارين. وهو، حتى تلك اللحظة، كان يجهل وجود هذين السوارين. «رأيت جيّدًا أنّه كان هناك

خداع، وعند ذلك، تركتُها. ولكن، قبل ذلك، ضربتها. واجهتُها بحقيقتها. قلتُ لها إنّ كلّ ما كانت تريده هو التلهّي بشيئها. كما أنّني قلت لها، وأنت تفهم، يا سيّد مارسو: «أنت لا ترين أنّ الناس يحسدونك على السعادة التي أمنحك إيّاها. ستعرفين فيما بعد قيمة السعادة التي كنت تمتلكينها».

لقد ضربها حتى أدماها. في السابق، لم يكن يضربها: «كنت أضربها، ولكنْ بلطف، إذا صحّ التعبير. وكانت تصرخ قليلاً، وكنتُ أغلق مصاريعَ النوافذ، وكان ذلك ينتهي ككلّ مرّة. أمّا الآن، فالضرب كان جدِّيًّا. وأنا أعتقد أنِّي عاقبتها عقابًا كافيًا».

وإذ ذاك شرح لي أنّه كان يحتاج إلى نصيحة في هذا الشأن. وتوقّف ليصلح فتيلة المصباح التي كانت تدخّن. كنتُ ما أزال أصغي إليه. وكنت قد شربت ما يقرب الليتر من الخمر، وشعرتُ بالحرّ في صدغي. وكنت أدخّن سكاير ريمون، إذ لم تبق لديّ سجائر. كانت آخر الحافلات تمرّ وتحمل معها ضجّة الضواحي التي باتت الآن بعيدة. تابع ريمون حديثه. إنّ ما كان يزعجه هو أنّه «كان ما يزال راغبًا في المجامعة». ولكنّه كان يريد أن يعاقبها. فكّر في بادئ الأمر بأن يقودها إلى فندق وأن يستدعي شرطة «الأخلاق» لكي يحدث فضيحة، ولكي

توضع على لائحة البغايا. ثم توجّه إلى أصدقاء كان قد عرفهم في وسطه فلم يجدوا له حلًّا. وقد أكّد لي ريمون أنّ مصلحة المرء أن يكون من ذلك الوسط. كان قد أطلعهم على الأمر فاقترحوا أن يتعقّبوها. ولكن، ذلك هو ما لم يكن يرجوه. راح يفكّر. في السابق، كان يودّ أن يسألني شيئًا، ولكن، قبل أن يسألني إيّاه، كان يودّ أن يعرف رأيي في هذه القضيّة. أجبته أنْ لا رأي لي فيها، ولكنّها كانت مثيرة. سألني إن كنت أعتقد أنّه كان هناك خداع، وقد كان يبدو لي جيّدًا أنّه كان هناك خداع. سألني إنْ كنت أوافق على ضرورة معاقبتها، وما الذي كنت سأفعله لو كنت مكانه، فأجبته: أنّ المرء لا يستطيع أبدًا أن يعرف، ولكنّني كنت أتفهّم أنّه يريد معاقبتها. شربتُ مزيدًا من الخمر. أمّا هو فأشعل سيجارة وكشف لي فكرته. كان يودّ أن يكتب لها رسالة «مع ضربات أقدام، وفي الوقت نفسه مع أشياء تحملها على الندم». وبعدها، عندما تعود، سينام معها «وعندما ينتهي بالضبط» سيبصق في وجهها ويلقيها خارجًا. وجدتُ، بالفعل، أنّ ذلك عقابٌ مناسب. ولكنّ ريمون قال لي بأنّه لا يحسّ نفسه قادرًا على كتابة الرسالة التي يجب إرسالها، وأنّه كان قد فكّر في أن أكتبها بالنيابة عنه. ولمّا لم أقل شيئًا، سألني إن كان يضجرني أن أكتبها الآن. فأجبت أن لا.

وقف إذ ذاك، بعد أن شرب كأسًا من الخمر، وأزاح الصحون والقليل من المقانق البارد الذي كنّا قد تركناه، ومسح باعتناءٍ قماشَ الطاولة المشمّع. أخرج من درج طاولة النوم ورقة مؤطّرة، ومغلّفًا أصفر، ومسكة ريشة من الخشب الأحمر، ومحبرة مربّعة من الحبر البنفسجيّ. عندما ذكر لي اسم المرأة، أدركتُ أنّها مغربيّة. حرّرتُ الرسالة. كيفما اتّفق، ولكنّي اجتهدتُ في إرضاء ريمون لأنّني لم أكن أملك أسبابًا لكي لا أرضيه. قرأت الرسالة بصوت عال. استمع إليّ وهو يدخّن ويهزّ رأسه، ثم طلب إليّ أن أعيد قراءتها. كان مسرورًا جدًّا. قال لي: «كنت أعلم جيّدًا أنّك تعرف الحياة». لم أكن لاحظتُ قبلاً أنّه كان يرفع الكلفة في مناداتي، ولاحظتُ ذلك عندما قال لي: «الآن، أنت صديق حقيقيّ». ردّد جملته، فقلت: «نعم»، سيّان أأكون صديقه أمْ لا، وكان كما يبدو يتمنّى ذلك كثيرًا. أغلق الرسالة وأنهينا الخمر. ثم جلسنا فترة ندخّن من غير أن نتحدّث بشيء. كان كلّ شيء في الخارج هادئًا. سمعنا صوت سيّارة تمرّ، وقلت: «الوقت متأخّر». كان ريمون يفكّر في ذلك أيضًا. ولاحظ أنّ الوقت يمرّ بسرعة، وكان ذلك صحيحًا على نحوٍ ما. وكنت قد نعست، ولكنّني كنت أحسّ مشقّة في النهوض. ولا بدّ أنّ هيئتي كانت متعبة، لأنّ ريمون قال لي بأنّه يجب ألّا أستسلم. لم أفهم في بادئ الأمر، وعندها

أوضح لي بأنّه كان قد علم بموت أمّي، وأنّ هذا شيء لا بدّ أن يحدث ذات يوم. كان هذا هو رأيي أيضًا.

نهضتُ. شدّ ريمون على يدي بقوّة كبيرة، وقال لي إنّ الرجال يتفاهمون دائمًا. عندما خرجتُ من بيته أغلقتُ الباب، وبقيتُ لحظةً في الظلمة، عند سطيحة السلّم. كان البيت هادئًا. ومن أعماق قفص السلّم كانت تنبعث نفحةٌ غامضةٌ ورطبة. لم أكن أسمع سوى تدفّق دمي الذي كان يطنّ في أذنيّ. بقيت جامدًا. ولكن، في غرفة الشيخ سالامانو، كان الكلب يئنّ أنينًا أصمّ.

٤

عملت كثيرًا طوال الأسبوع، وأقبل ريمون يقول لي إنّه قد أرسل الرسالة. ذهبتُ إلى السينما مرّتين مع إيمانويل الذي لم يكن يفهم دائمًا ما يجري على الشاشة، وكان عليّ أن أقدّم له إيضاحات. وكان أمس يوم السبت، وأتت ماري كما كنّا قد اتّفقنا. اشتهيتها كثيرًا، لأنّها كانت ترتدي ثوبًا جميلاً ذا خطوط حمراء وبيضاء وحذاءً من الجلد. وكان المرء يحزر، وراء الثوب، نهديها القاسيين، وكانت سمرةُ الشمس تضفي على وجهها حمرة الورد. استقللنا الأوتوبيس وذهبنا، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الجزائر، إلى شاطئ محفوف بالصخور، ومغروس بالقصب من ناحية اليابسة. لم تكن شمس الساعة الرابعة حارّة أكثر ممّا ينبغي، لكنّ الماء كان فاترًا، مع موجات

صغيرة طويلة وكسلى. علّمتني ماري لعبة: علينا، ونحن نسبح، أن نشرب عند قمّة الموجة، وأن نجمع في فمنا الزبد كلّه ثم نستلقي على ظهرنا لنبصقه في وجه السماء؛ وكان ذلك يشكّل نوعًا من الدانتيل ذي الرغوة التي كانت تتبدّد في الهواء أو تتساقط رذاذًا فاترًا على وجهينا. لكن، بعد فترة قصيرة، أحسستُ بفمي يلتهب من مرارة الملح. ولحقتني إذ ذاك ماري والتصقتْ بي في الماء. ووضعتْ فمها على فمي، وكان لسانها يرطّب شفتيّ، ثم تدحرجنا في الأمواج ردحًا من الزمن.

عندما ارتدينا ملابسنا على الشاطئ، كانت ماري تنظر إليّ بعينين برّاقتين. قبّلتُها. ومنذ تلك اللّحظة كففنا عن الكلام. ألصقتُها بي، وكنّا مستعجلين لنجد الأوتوبيس، ولنعود إلى بيتي ونرتمي على سريري. وكنت قد تركتُ نافذتي مفتوحة، وكان لذيذًا أن نحسّ ليلَ الصيف يسيل على جسدينا الأسمرين.

هذا الصباح، بقيتْ ماري، فطلبتُ إليها أن نتناول الغداء معًا. نزلتُ لأشتري لحمًا. وأنا أصعد، سمعت صوت امرأة في غرفة ريمون. وبعد قليل، وبّخ الشيخ سالامانو كلبه، وسمعنا صوتَ نعالٍ ومخالب على درجات السلّم الخشبيّة، ثم ارتفع صوت يقول: «قذر، جيفة» وخرجا إلى الشارع. رويتُ لماري قصّة الشيخ وضحكت.

كانت ترتدي إحدى مناماتي، وقد شمّرتْ أكمامها. عندما ضحكتْ اشتهيتُها أيضًا. وبعد لحظة سألتني إنْ كنت أحبّها. أجبتها بأنّ ذلك لا يبدو أنّه يعني شيئًا، وأنّه كان يخيّل إليّ أنْ لا. بدت عليها هيئةٌ حزينة. ولكن، بينما كانت تحضّر الغداء، ومن غير أن تكون هناك أيّة مناسبة، ضحكتْ ضحكةً قبّلتُها على أثرها. وفي هذه الأثناء، انفجرتْ صرخاتُ مشاجرة عند ريمون.

في بادئ الأمر سمعنا صوتَ امرأة نحيفًا، ثم صوتَ ريمون الذي كان يقول: «اشتقت إليك، اشتقتُ إليك، سأعلّمك كيف أشتاق إليك». ثم كانت حركات صامتة صرخت المرأة بعدها بعنف إلى حدّ أن امتلأتْ سطيحةُ السلّم في الحال بالناس. خرجنا، أنا وماري أيضًا. كانت المرأة ما تزال تصرخ، وكان ريمون ما يزال يضرب. قالت لي ماري إنّ ذلك كان فظيعًا، فلم أجبها بشيء، وسألتني أن أذهب فأحضر شرطيًّا، ولكنّني قلت لها إنّني لا أحبّ الشرطة. ومع ذلك، فقد حضر شرطي مع مستأجر الطابق الثاني، وهو إطفائيّ، وطرق الباب، فلم نعد نسمع شيئًا. طرق بشدّة أقوى، وبعد لحظة، بكت المرأة وفتح ريمون. كانت في فمه سيجارة، وكانت هيئته متكلّفة اللطف. اندفعت الفتاة نحو الباب وصرختْ للشرطي أنّ ريمون ضربها. قال الشرطي: «ما اسمك؟». فأجابه ريمون. قال الشرطيّ: «إرم السيجارة من فمك حين تحدّثني» تردّد

ريمون، ونظر إليّ وسحب نفسًا من سيجارته. عندها، صفعه الشرطيُّ ملء كفّه صفعةً مدوّيةً وثقيلة، على خدّه، وسقطت السيجارة على بعد عدّة أمتار. تبدّل وجه ريمون، ولكنّه لم يقل شيئًا في الحال، ثم سأل بصوت متواضع إنْ كان يستطيع أن يلمّ سيجارته. فصرّح الشرطي بأنّه يستطيع أن يفعل وأردف: «ولكن في المرّة القادمة، ستعرف أنّ الشرطي ليس مهرِّجًا». في أثناء ذلك، كانت الفتاة تبكي وتردّد: «لقد ضربني، العكروت!» عندها سأل ريمون: «أيّها السيّد الشرطي، هل من القانون أن يُقال للرجل إنّه عكروت؟» لكنّ الشرطي أمره «بأن يسدّ بوزه». تلفّت ريمون نحو الفتاة وقال لها: «انتظري قليلاً، يا صغيرتي، فسوف نلتقي ثانية». فأمره الشرطي بأن يغلق فمه، وأوعز للفتاة أن تذهب، وأن يبقى هو في غرفته بانتظار استدعائه من قبل مفوّضيّة الشرطة. وأضاف بأنّ ريمون لا بدّ أن يكون خجلاً بأن يكون سكران إلى حدّ يجعله يرتجف هكذا. في هذه اللحظة شرح له ريمون: «لست سكران، يا سيّدي الشرطي. كلّ ما في الأمر. أنّني هنا، أمامك، وأنا أرتجف. رغمًا عنّي». أغلق بابه، وذهب الجميع. وكنّا، أنا وماري، قد انتهينا من إعداد الفطور. ولكنّها لم تكن جائعة، فأكلت كلّ شيء تقريبًا. وعند الساعة الواحدة غادرتْ، فنمتُ قليلاً.

عند الساعة الثالثة، طُرق بابي ودخل ريمون. ظللت

ممدّدًا. جلس على حافّة سريري، وظلّ لحظة صامتًا. سألته كيف جرت قصّته، فروى لي بأنّه فعل ما كان يودّ فعله، ولكنّها صفعتْه، فضربها. أمّا الباقي، فكنت قد شاهدتُه. قلت له إنّه يبدو لي أنّها بهذا قد عُوقبت، وأنّه يجب أن يكون مسرورًا. كان هذا هو رأيه أيضًا. ولاحظ أنّ الشرطي عبثًا ما فعل، إذ إنّ ذلك لا يغيّر شيئًا من الضربات التي كانت قد تلقّتها. وأضاف بأنّه كان يعرف الشرطة جيّدًا، وأنّه يعرف كيف يجب أن يتصرّف المرءُ معهم. وسألني عندها إن كنت قد توقّعتُ أن يردّ على صفعة الشرطي؛ فأجبت بأنّني لم أكن أتوقّع شيئًا على الإطلاق، وأنّني لا أحبُّ الشرطة على أيّ حال. بدا على ريمون أنّه مسرور جدًّا. وسألني إنْ كنت أريد أن أخرج معه. فنهضت وبدأت بتمشيط شعري. فقال لي بأنَّه يجب أن أخدمه كشاهد. وكان ذلك لديّ سواء، ولكنّني لا أعلم ماذا يجب أن أقول. ولكنْ كان حسبي، في رأي ريمون، أن أصرّح بأنّه كان قد اشتاق إلى الفتاة. ورضيت بأن أكون له شاهدًا.

خرجنا، وقدّم لي ريمون قدح عرق. ثم أراد أن يلعب البلياردو فخسرتُ في آخر لحظة. كان يريد بعد ذلك أن يذهب إلى الماخور، ولكنّني رفضت لأنّني لا أحبّ هذا. عندها، عدنا ببطء وأخبرني كم كان سعيدًا لأنّه

استطاع أن يعاقب عشيقته. كنت أجده لطيفًا جدًّا معي، وفكّرت أنّ تلك كانت لحظة جميلة.

من بعيد، لمحتُ على عتبة الباب الشيخ سالامانو الذي كان بهيئة مضطربة. عندما تقاربنا، رأيت أنّ كلبه لم يكن بصحبته. كان ينظر في جميع الجهات، ويدور حول نفسه، ويحاول أن ينفذ من خلال ظلمة الممرّ. كان يتمتم بكلمات غير مفهومة، ويعود ليفتّش في الطريق بعينيه الصغيرتين الحمراوين. وعندما سأله ريمون عمّا كان يشكو منه، لم يجب في الحال. وسمعت بغموض أنّه كان يتمتم: «القذر، الجيفة». واستمرّ في اهتياجه. سألته أين كلبه، فأجابني بأنّه ذهب. ثم، فجأة تحدّث بسرعة: «لقد اصطحبته إلى «الشان دو مانوفر» كالعادة. ولقد كان هناك حشد وحول أكواخ البائعين المتجوّلين. توقّفتُ لأرى «ملك الفرار». وعندما أردتُ أن أستأنف سيري لم يكن هناك. بالطبع، منذ زمن طويل، وأنا أريد أن أشتري له عقدًا أصغر. ولكنّني لم أكن أعتقد قطّ أنّ هذه الجيفة تستطيع أن ترحل هكذا».

عندها شرح له ريمون أنّ الكلب ربّما ضلّ الطريق، وأنّه سوف يعود. وضرب له أمثلةً عن كلاب اجتازت عشرات الكيلومترات لتعود فتجد صاحبها. ومع ذلك، فقد كانت هيئة الشيخ أشدّ اضطرابًا. «ولكنّهم سوف يأخذونه

لي، لو تدرك، هذا إذا التقطه أحد. ولكنّ ذلك غير ممكن، إنّه سيثير اشئمزاز الجميع بقشره. ستأخذه الشرطة، هذا مؤكّد». قلت له إنّ عليه أن يذهب إلى زريبة الحيوانات، وسوف يردّونه له مقابلَ بعض المال. سألني إنْ كان مبلغ هذا المال مرتفعًا، ولم أكن أعرف. إذ ذاك غضب قائلاً: «أعطي مالاً من أجل هذه الجيفة؟ آه! إنّني أفضّل أن يموت». وأخذ يشتمه. ضحك ريمون ودلف إلى البيت وتبعته، افترقنا أمام سطيحة الشقّة. بعد فترة، سمعت وقع أقدام الشيخ، ثم طُرق بابي. عندما فتحت، ظلّ لحظة على العتبة. وقال لي: «اعذرني، اعذرني». دعوته للدخول، ولكنّه لم يرد ذلك. كان ينظر إلى طرف حذاءيه وكانت يداه المقشّرتان ترتعدان. ومن غير أن يواجهني قال لي: «إنّهم لن يأخذوه منّي، أليس كذلك يا سيّد مارسو؟ سيعيدونه لي وإلّا، فما الذي سيجري لي؟». قلت له إنّ زريبة الحيوانات تحتفظ بالكلاب ثلاثة أيّام بانتظار أصحابها، ثم تتصرّف بها كما يحلو لها. نظر إليّ بصمت، ثم قال لي: «مساء الخير» وأغلق بابه وسمعته يروح ويجيء. وطقطق سريره. ومن الصوت الخفيف الغريب الذي اجتاز الحاجز، فهمتُ أنّه كان يبكي. ولا أدري لماذا فكّرتُ بأمّي. ولكن كان يجب أن أنهض في الغد باكرًا ولم أكن قد جعت، فنمت من غير أن أتناول العشاء.

٥

تلفن لي ريمون على المكتب. قال لي إنّ أحد أصدقائه (وكان قد حدّثه عنّي) يدعوني إلى قضاء نهار الأحد في كوخه الصغير، بالقرب من مدينة الجزائر. فأجبت بأنّي أرحّب بذلك كثيرًا، ولكنّني كنتُ قد وعدتُ صديقة بيومي ذاك. قال لي ريمون في الحال بأنّه يدعوها هي أيضًا؛ فزوجة صديقه ستكون مسرورة جدًّا بأن لا تكون وحيدة وسط مجموعة من الرجال.

أردت أن أغلق السمّاعة في الحال، لأنّني أعلم أنّ المدير لا يحبّ أن تأتينا المخابرات من المدينة، ولكنّ ريمون طلب إليّ أن أنتظر، وقال لي إنّه كان بإمكانه أن ينقل إليّ الدعوة عند المساء، ولكنّه يريد أن يبلّغني شيئًا آخر. فلقد كان ملاحقًا طوال النهار من قبل جماعة من

العرب، بينهم شقيقُ عشيقته السابقة، «فإذا رأيته أمام البيت هذا المساء فأبلغني». قلت إنّ ذلك مفهوم.

بعد قليل، استدعاني المدير، وهذا ما أثار انزعاجي على الفور، لأنّني فكّرت بأنّه سيطلب منّي أن أخفّف مخابراتي التليفونيّة وأن أعمل بصورة أفضل. لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث. فقد صرّح لي بأنّه سيحدّثني عن مشروع ما يزال شديد الإبهام؛ وكان يودّ فقط أن يعرف رأيي في الموضوع. فلقد كان بودّه أن يفتتح مكتبًا في باريس لقضاء أعماله في المكان ذاته، ومباشرةً، مع الشركات الكبرى، وكان يودّ أن يعرف إنْ كنت مستعدًّا للذهاب إلى هناك. وكان ذلك سيتيح لي أن أعيش في باريس، وأن أسافر أيضًا فترةً من السنة. قال لي: «إنّك شابّ، ويبدو لي أنّ هذه حياة لا بدّ أن تروقك». قلت نعم. ولكنّ ذلك في الواقع، كان سواءً لديّ. عندها سألني إنْ كان لا يهمّني أن يطرأ تغيير على حياتي. فأجبتُ أنّ المرء لا يغيّر حياته قطّ، وأنّ جميع الحيوات تتساوى على كلّ حال، وأنّ حياتي هنا لم تكن تسوؤني قطّ. فبدا أنّه مستاء، وقال لي إنّني كنت أجيب دائمًا أجوبة جانبيّة، وإنّني لم أكن طموحًا، وإنّ ذلك كان فاجعًا في الأعمال. عندها عدت إلى عملي. وقد كنت أفضّل ألاَّ أثير استياءه، ولكنّني لم أكن أجد سببًا لتغيير حياتي. وعند التفكير في حياتي

بطريقة جدِّيّة، لم أجدني تعيسًا. حين كنت طالبًا، كان لي كثير من المطامح من هذا النوع. ولكن، عندما اضطررت إلى ترك دراستي، فهمت بسرعة أنّ هذا كلّه لم يكن ذا أهمّيّة حقيقيّة.

في المساء، أتت ماري تزورني، وسألتني إن كنت أريد أن أتزوّجها. فأجبتها أنّ ذلك كان سواءً لديّ، وأنّنا نستطيع أن نتزوّج إذا كانت تريد ذلك. عندها أرادت أن تعرف إنْ كنت أحبّها. فأجبتها كما سبق أن أجبتها مرّة، وهو أنّ ذلك لا يعني شيئًا وأنّني، بلا شكّ، لم أكن أحبّها. سألتني: «ولماذا تتزوّجني إذن؟». فشرحتُ لها أنّ ذلك ليس بذي أهمّيّة، وأنّها، إذا كانت تريد أن تتزوّج، فإنّنا نستطيع أن نفعل ذلك. والحقّ أنّها كانت هي التي تطلب الزواج، وأنّي كنت أكتفي بالموافقة. فقالت ملاحظةً، آنذاك، إنّ الزواج شيء مهمّ. فأجبت: «لا». سكتت ونظرتْ إليّ بصمت. ثم تكلّمت. كانت تريد فقط أن تعلم إذا كنت سأقبل العرضَ نفسَه لو صدر عن امرأة أخرى سأكون متعلّقًا بها بالطريقة نفسها. قلت: «بالطبع». عندها تساءلتْ إنْ كانت تحبّني، وأنا لم أكن أستطيع أن أعرف شيئًا بهذا الخصوص. بعد فترة أخرى، تمتمت بأنّني كنت غريبًا، وأنّها كانت تحبّني بلا شكّ من أجل ذلك، ولكن ربّما أثرتُ قرفَها يومًا لهذه الأسباب نفسها. ولمّا

كنت أصمت، لم أكن أجد شيئًا لأضيفه، فقد أخذتْ ذراعي وهي تبتسم وصرّحتْ أنّها تريد أن تتزوّج. أجبت أنّنا سنتزوّج في الوقت الذي تريد. عندها حدّثتُها عن عرض المدير، فقالت لي ماري إنّها تحبّ أن تتعرّف إلى باريس. أعلمتُها أنّني سبق أن عشتُ فيها في فترة ما، فسألتني عن رأيي فيها. قلت: «إنّها وسخة، ويوجد حمام وساحات سوداء. وللناس بشرة بيضاء».

مشينا واجتزنا المدينة قاطعيْن شوارعَها الكبيرة. كانت النساء جميلات. سألتُ ماري إن كانت تلاحظ ذلك، فأجابت أن نعم، وأنّها كانت تفهمني. لفترةٍ، انقطعنا عن الحديث، غير أنّني أردت أن تبقى معي، وقلت لها إنّنا نستطيع أن نتناول الغداء معًا عند سيلست. كانت شديدة الرغبة في ذلك، ولكن كانت لديها أعمال. كنّا بالقرب من بيتي، فودّعتها. نظرتْ إليّ: «ألا تريد أن تعرف ما هي الأعمال التي تشغلني؟» كنت أودّ كثيرًا أن أعرف ذلك، ولكنّني لم أكن قد فكّرت به، وهذا ما كانت تأخذه عليّ، كما يبدو. إزاء موقفي المرتبك، ضحكت أيضًا، ثم قامت بحركة استطالت فيها بجسمها كلّه لتقدّم لي فمها.

تناولتُ العشاء عند سيلست. ما إن ابتدأت بالطعام حتى دخلت امرأةٌ قصيرة غريبة سألتني إن كانت تستطيع أن تجلس إلى طاولتي. وبالطبع كانت تستطيع ذلك. كانت لها

حركات متقطّعة، وعينان برّاقتان في وجه تفّاحيّ صغير. خلعتْ سترتها، وجلستْ، ثم نظرت بحماس إلى قائمة الطعام، ونادت سيلست وطلبت في الحال جميع أطباقها في صوت واضح ومستعجل في وقت واحد. وبانتظار المشهّيات، فتحتْ حقيبتها، وأخرجتْ ورقة مربّعة وقلمًا، وقامت مسبّقًا بالجمع. ثم أخرجتْ من جيبها المبلغ المطلوب وقد أضافت إليه البخشيش، ووضعته أمامها. في هذا الوقت، أحضروا لها المشهّيات فالتهمتها بسرعة. وبانتظار الطبق التالي، أخرجتْ أيضًا من حقيبتها قلمًا أزرق ومجلّة كانت تدوّن فيها البرامجَ الإذاعيّة الأسبوعيّة، وقرأتْ بعنايةٍ كبيرةٍ، جميعَ مواعيد الإذاعات واحدًا واحدًا. ولمّا كانت المجلّة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة، فقد تابعت هذا العمل بدقّة أثناء فترة الطعام كلّها. كنت قد انتهيت عندما كانت ما تزال تقرأ بالانكباب نفسه. ثم نهضت، وارتدت سترتها وهي تقوم بالحركات الدقيقة الآليّة نفسها، ثم ذهبت. ولمّا لم يكن لديّ شيء أفعله، فقد خرجتُ أنا أيضًا وتبعتها فترة. توقّفت على مسافة الرصيف، ثم تابعت طريقها بعجلة ووثوق لا يصدّقان، من دون أن تميل أو تتلفّت. وانتهى بي الأمر إلى إضاعة أثرها، فعدتُ أدراجي. وفكّرت بأنّها كانت غريبة، ولكنّني نسيتها بسرعة كافية.

على عتبة بيتي وجدتُ الشيخ سالامانو. أدخلته فأبلغني أنّ كلبه قد ضاع لأنّه لم يجده في الزريبة. أخبره العمّال أنّه ربّما سُحق. وكان قد سأل هل من الممكن أن يَعرف ذلك في مفوّضيّات الشرطة، فأجيب بأنّهم لم يكونوا يحتفظون بأثر لهذه الأشياء لأنّها تحدث كلّ يوم. قلت للشيخ سالامانو إنّه يستطيع أن يحصل على كلب آخر، ولكنّه كان محقًّا بأن يلفت نظري إلى أنّه أَلِفَ كلبه ذاك.

كنت مقرفصًا على سريري، وكان سالامانو جالسًا على كرسي أمام الطاولة. كان يجلس بمواجهتي ويسند يديه بركبتيه. وقد احتفظ بلبّادته القديمة. وراح يتمتم أطراف جمل تحت شاربه المصفرّ. أضجرني قليلاً، ولكن لم يكن لديّ ما أفعله. لم أكن قد أحسست بالنعاس. ولكي أقول شيئًا، سألتُه عن كلبه. فقال لي إنّه حصل عليه بعد موت زوجته. كان قد تزوّج متأخّرًا بقدر كاف، وكانت له في صباه رغبةٌ في أن يعمل في المسرح، وفي الغرفة كان يلعب المسرحيّات الحربيّة. ولكنّه، في النهاية، انصرف إلى العمل في السكّة الحديديّة ولم يكن نادمًا على ذلك، لأنّه يتقاضى الآن تقاعدًا صغيرًا. ولم يكن سعيدًا مع زوجته ولكنّه اعتاد عليها بالإجمال. وحين ماتت، شعر بأنّه بات وحيدًا جدًّا. وعندها طلب كلبًا من أحد أصدقائه في المصنع، فحصل عليه. كان صغيرًا جدًّا، فوجب عليه

أن يغذّيه بالرضاعة. ولكنْ لمّا كان الكلب يعيش أقلّ من الإنسان، فقد هَرِما معًا. قال لي سالامانو: «لقد كانت له طباع شرسة وكان بيننا اقتتال في بعض الأحيان. ولكنّه كان كلبًا طيّبًا بالرّغم من كلّ شيء». قلتُ بأنّه كان من جنس طيّب، فانفرجت أساريره. وأضاف: «ثم إنّك لم تكن قد عرفته قبل مرضه، لقد كان وبرُه أجملَ ما فيه». وفي كلّ مساء وصباح منذ أن لحقه هذا المرض، كان سالامانو يرسله للمعالجة. ولكنّ مرض الكلب الحقيقي، كان بالنسبة إلى سالامانو، الشيخوخة، والشيخوخة لا تُشفى.

في هذه الأثناء تثاءبتُ، فقال لي الشيخ إنّه ذاهب. قلت له إنّه يستطيع أن يبقى، وإنّني كنت منزعجًا لما حدث لكلبه. فشكرني. وقال لي إنّ أمّي كانت تحبّ كلبه كثيرًا. حين كان يتحدّث عنها، كان يدعوها «أمّك المسكينة»، ولقد عبّر عن افتراضه بأنّني لا بدّ أن أكون تعسًا جدًّا منذ أن ماتت أمّي، فلم أنبس ببنت شفة شيئًا. عندها قال لي، بسرعة وبارتباك، إنّه يعلم أنّ الحيّ أساء حكمه عليّ لأنّني وضعتُ أمّي في المأوى، وإنّه كان يعرفني، وكان يعرف أنّني كنت أحبّ أمّي كثيرًا. أجبتُ، ولا أدري لماذا، أنّني كنت أجهل حتى ذلك الحين أنّهم كانوا يحكمون عليّ حكمًا سيّئًا في هذا الموضوع، ولكنّ

المأوى بدا لي شيئًا طبيعيًّا لأنّني لم أكن أملك المال الكافي لأحتفظ بأمّي. وأضفت: «ثم إنّه كان قد مضى عليها وقت طويل لم يكن لديها ما تقوله لي بعد، وأنّها كانت تضجر وحدها» وقال لي: «أجل، في المأوى، على الأقلّ، يجد العاجز أصدقاء له». ثم اعتذر. كان يودّ أن ينام. كانت حياته قد تغيّرت الآن، ولم يكن يدري ما سيفعله. ولأوّل مرّة منذ أن عرفته، مدّ لي يده، بحركة عجلى، فأحسست بالقشر على جلده. ابتسم قليلاً. وقبل أن يذهب، قال لي: «آمل ألّا تنبح الكلاب هذه الليلة؛ فأنا أعتقد دائمًا أنّ كلبي هو الذي ينبح».

٦

عانيت يوم الأحد مشقّةً لأنهض من نومي، حتى وجب على ماري أن تدعوني وتهزّني. لم نأكل لأنّنا كنّا نريد أن نسبح باكرًا. وكنت أحسّني فارغًا تمامًا، وشعرتُ بصداع خفيف. كان لسيجارتي طعم مرّ. سخرت ماري منّي لأنّها كانت تقول إنّه كان لي «رأس دفن». وكانت قد لبستْ ثوبًا من الكتّان الأبيض وأسبلتْ شعرها. فقلت لها إنّها جميلة، فضحكت ابتهاجًا.

عندما هبطنا، طرقنا باب ريمون، فأجابنا بأنّه في طريقه إلى النزول. في الشارع، كان النهار، المليء بالشمس، يصفعني لأنّني كنت متعبًا ولأنّنا لم نكن قد فتحنا النوافذ. كانت ماري تقفز من الفرح ولا تكفّ عن القول بأنّ الطقس جميل. أحسستني أكثر ارتياحًا من قبل

ولاحظت أنّني جائع. قلت ذلك لماري، فمدّت لي كيسها القماشيّ المشمّع حيث وضعتْ لباسينا البحريّين ومنشفة. لم يكن لي إلّا أن أنتظر، وسمعنا ريمون يغلق بابه. كان يرتدي سروالاً أزرق وقميصًا أبيض قصير الكمّيْن. ولكنّه كان قد ارتدى لباسًا بحريًّا، وهذا ما أضحك ماري، وكان ساعده شديد البياض تحت الشعر الأسود. كنت مشمئزًّا بعض الشيء من ذلك. كان يصفّر وهو يهبط، يبدو سعيدًا جدًّا. وقال لي: «السلام عليك، أيّها العزيز» ونادى ماري «آنسة».

كنّا مساء الأمس قد ذهبنا إلى المخفر، فشهدتُ بأنّ ريمون كان مشتاقًا إلى الفتاة. وقد تُرك وشأنه بانتظار دعوة أخرى. ولم يراقبوا تأكيدي. أمام الباب، تحدّثنا عن ذلك مع ريمون، ثم قرّرنا أن نستقلّ الأوتوبيس. لم يكن الشاطئ بعيدًا جدًّا، ولكنّنا بالأوتوبيس سنمضي بسرعة أكبر. كان ريمون يفكّر بأنّ صديقه سيسرّ عندما يرانا وقد وصلنا في وقت مبكر. كنّا على وشك أن نمضي، حين أشار إليّ ريمون فجأةً لأنظر قبالتي. فرأيت جماعة من العرب مستندين إلى واجهة مكتب التبغ. كانوا ينظرون إلينا بصمت، ولكنْ على طريقتهم، لا أكثر ولا أقلّ ممّا لو كنّا أحجارًا أو أشجارًا ميّتة. قال لي ريمون إنّ الثاني إلى اليسار كان رَجُلَه، وبدا عليه أنّه منشغل. وأضاف أنّ

القضيّة، مع ذلك، كانت الآن، منتهية. لم تفهم ماري جيّدًا، فسألتنا ما الذي يحدث. فأجبتها أنّهم جماعة من العرب يريدون شرًّا بريمون. فأرادت أن نذهب على الفور. استقام ريمون وضحك وهو يقول إنّ علينا أن نسرع.

توجّهنا نحو موقف الأوتوبيس الذي كان على بُعد يسير، وأبلغني ريمون أنّ العرب لم يكونوا يتبعوننا. وتلفّتّ فإذا هم ما يزالون في مكانهم ينظرون باللّامبالاة نفسها إلى المكان الذي تركناه. فركبنا الأوتوبيس. وكان ريمون، الذي بدا عليه الانفراج، لا ينفكّ يرسل دعاباته أمام ماري. أحسستُ أنّها كانت تعجبه ولكنّها لم تجبه تقريبًا. وكانت تنظر إليه، بين فترة وأخرى، وهي تضحك.

نزلنا في ضواحي مدينة الجزائر. لم يكن الشاطئ بعيدًا عن موقف الأوتوبيس، ولكن وجب علينا أن نجتاز نجدًا صغيرًا يشرف على البحر ثم ينحدر نحو الشاطئ. وكان مغطّى بالأحجار الصفراء وبنبات البروق الشديد البياض تحت زرقة السماء التي اشتدّت. وكانت ماري تتسلّى بأن تنثر أوراقها وهي تضربها ضربات قويّة بكيسها من القماش المشمّع. مشينا بين صفوف من الدارات الصغيرة ذات الحواجز الخضراء أو البيضاء، وقد اختفى بعضها على شرفاته، تحت أشجار الأثل، بينما برز بعضها الآخر عاريًا، وسط الأحجار. وقبل أن يصل المرء إلى

حافّة النجد، كان بإمكانه أن يرى البحر الهادئ، وعلى بُعد يسير، الرأسَ المسترخي والضخم في الماء الصافي. ارتفع إلينا هديرُ محرّك خفيف في الهواء الهادئ. ورأينا، في البعيد البعيد، زورقَ صيد، يتقدّم، خفيًّا، في البحر الساطع. قطفتْ ماري بعض أزهار السوسن الصخري. ورأينا من المنحدر الهابط نحو البحر بعض السبّاحين.

كان صديق ريمون يسكن كوخًا صغيرًا من الخشب في طرف الشاطئ. وكان البيت مستلقيًا على الصخور، وكانت الأعمدة التي تسنده من أمام تسبح في الماء. قدّمنا ريمون. وكان صديقهُ يُدعى «ماسون». كان رجلاً كبيرًا، ضخم القامة والكتفين، وكانت معه امرأة قصيرة لطيفة، ذات لهجة باريسيّة. بادرنا بأن طلب إلينا أن نأخذ راحتنا، وقال إنّ لديه سمكًا مقليًّا اصطاده ذلك الصباح بالذات. أخبرته كم أجد بيته جميلاً. فأعلمني أنّه يأتي إليه ليمضي فيه السبت والأحد وجميع أيّام العطلة. وأضاف «وأنا وامرأتي، متفاهمان جدًّا». في تلك الأثناء، كانت امرأته، تضحك مع ماري. وربّما للمرّة الأولى، فكّرت فعلاً أنّني سأتزوّج.

كان ماسون يريد أن يسبح ولكنّ امرأته وريمون لم يريدا أن يذهبا. هبطنا، نحن الثلاثة، وارتمت ماري حالاً في الماء. أمّا أنا وماسون فقد تريّثنا قليلاً. كان يتحدّث

ببطء، ولاحظت أنّ لديه عادة أن يتمّ كلّ ما يقوله بتعبير: «بل أنا أذهب إلى القول...» حتى حين لم يكن في الواقع يضيف أيّ شيء إلى معنى جملته. وقد قال لي بخصوص ماري: «إنّها مدهشة، بل أذهب إلى القول إنّها جذّابة». ثم لم أعد أنتبه إلى هذه العادة لأنّني انشغلت بالإحساس بأنّ الشمس تلذّني. بدأ الرمل يحمى تحت الأقدام، وأخّرتُ فترةً أخرى الاستجابة لرغبتي في الهبوط إلى الماء، ولكنّني انتهيت بأن أقول لماسون: «هل نهبط؟». غطستُ. دخل هو في الماءَ بهدوء وارتمى عندما فقد موطئًا لقدميه. كان يسبح وهو يحرّك ذراعيه. وكانت سباحته رديئة بعض الشيء حتى إنّني تركته لألحق بماري. كان الماء باردًا، وكنت سعيدًا بأن أسبح، وابتعدنا، أنا وماري، وكنّا نحسّ أنّنا متوافقان في حركاتنا وفي انشراحنا.

كنّا نسبح في عرض البحر على ظهرينا، وكانت الشمس تزيح عن وجهي المتوجّه نحو السماء آخرَ وشاحات الماء التي تسيل في فمي. رأينا ماسون يعود إلى الشاطئ ليستلقي في الشمس. كان يبدو من البعيد ضخمًا. أرادت ماري أن نسبح معًا. فوقفت خلفها لآخذها من وكانت تتقدّم بقوّة ذراعيها بينما كنت أساعدها وأنا أخبط برجليّ. تبعنا صوت الماء الخفيف في الصباح حتى أخذت

أشعر أنّني متعب. وعندها تركت ماري وعدت وأنا أسبح بانتظام وأتنفّس جيّدًا. على الشاطئ، تمدّدتُ على بطني قرب ماسون ودفنت وجهي في الرمل. قلت له إنّ السباحة كانت «لذيذة» وكان هو من هذا الرأي. بعد قليل، أقبلت ماري، وتلفّتّ لأنظر إليها وهي تتقدّم. كانت لزجة كلّها من الماء المملّح وكانت تمسك شعرها إلى الخلف. تمدّدتْ إلى جانبي فكانت الحرارتان المنبعثتان من جسدها ومن الشمس تنوّمانني قليلاً.

هزّتني ماري وقالت لي إنّ ماسون عاد إلى منزله، ويجب أن نتناول الفطور. نهضتُ على الفور لأنّني كنت جائعًا. ولكنّ ماري قالت لي بأنّني لم أقبّلها منذ الصباح. كان هذا صحيحًا بالرّغم من أنّني كنت أشعر بالرغبة في ذلك. وقالت لي: «تعال إلى الماء». فركضنا في الموجات الأولى الصغيرة. وسبحنا عدّة أمتار ثم التصقت بي. وأحسستُ بساقيها حول ساقي واشتهيتُها.

حين عدنا، كان ماسون ينادينا. قلت له إنّني جائع جدًّا، فقال لامرأته في الحال إنّني أروق له. كان الخبز لذيذًا. التهمتُ حصّتي من السمك. وكان هناك بعد ذلك لحم وبطاطا مقليّة. رحنا نأكل جميعنا من غير أن نتحدّث. وكان ماسون يشرب غالبًا خمرًا وكان يصبّ لي بلا انقطاع. عند القهوة، كنت قد أحسست برأسي ثقيلاً

ودخّنت كثيرًا. وواجهنا، أنا وماسون وريمون، أمر قضاء شهر آب معًا على الشاطئ، بالاشتراك في النفقات. قالت لنا ماري فجأةً: «هل تعرفون كم الساعة الآن، إنّها الحادية عشرة والنصف». كنّا جميعًا مدهوشين، ولكنّ ماسون قال إنّنا كنّا قد أكلنا باكرًا جدًّا، وإنّ ذلك طبيعي لأنّ وقت الفطور هو الساعة التي يشعر فيها المرءُ بالجوع. ولم أدرِ لماذا أضحك هذا الكلامُ ماري. أعتقد أنّها كانت قد شربت أكثر ممّا ينبغي بقليل. عندها سألني ماسون إن كنت أرغب في التنزّه معه على الشاطئ. وقال: «إنّ امرأتي تقوم بالقيلولة دائمًا بعد الفطور. وأنا لا أحبّ ذلك. يجب أن أمشي. وأنا أقول لها دائمًا إنّ ذلك أفيد للصحّة. ولكنّ ذلك حقّها، بعد كلّ شيء». وصرّحت ماري أنّها ستبقى لتساعد السيّدة ماسون في غسل الصحون. وقالت الباريسيّة القصيرة إنّ ذلك يقتضي إخراج الرجال، ونزلنا نحن الثلاثة.

كانت الشمس تهبط عموديًّا تقريبًا على الرمل، وكان وهجها على البحر لا يُحتمل. لم يكن ثمّة أحد على الشاطئ بعد. وفي البيوت الصغيرة التي تزيّن المنحدر، وتنيف على البحر، كانت تُسمع أصواتُ الصحون وأواني الطعام. كنّا لا نكاد نتنفّس من حرارة الحجر التي كانت تصعد من الأرض، وقد بدأ ريمون وماسون يتحدّثان عن

أشياء وأشخاص لم أكن أعرفهم. وفهمت أنّهما كانا متعارفين منذ زمن طويل، حتى إنّهما عاشا معًا في وقت ما. توجّهنا نحو الماء وحاذينا البحر. كانت موجة صغيرة، أطول من سابقتها، تتقدّم أحيانًا لتبلّل أحذيتنا القماشيّة. لم أكن أفكّر في شيء لأنّني كنت نصف نائم جرّاء هذه الشمس التي كانت تلفح رأسي العاري.

في هذه اللحظة، قال ماسون لريمون شيئًا لم أسمعه جيّدًا. ولكنّني لمحت في الوقت نفسه، في أقصى طرف الشاطئ، عربيّين يرتديان الثوب الكحلي السميك ويتقدّمان في اتّجاهنا. نظرت إلى ريمون فقال لي: «إنّه هو» وتابعنا سيرنا. سأل ماسون كيف استطاعوا أن يتبعونا حتى هنا. وفكّرت أنّهم لا بدّ أن يكونوا قد رأونا نركب الأوتوبيس ومعنا حقيبة البحر. ولكنّني لم أقل شيئًا.

كان العربيّان يتقدّمان ببطء وكانا أقرب من قبلُ بكثير. فلم نبدّل مشيتنا، ولكنّ ريمون قال: «إذا حصلت مشاجرة، فسوف تتكفّل أنت، يا ماسون، بالثاني، وأمّا أنا، فسأتولّى رَجُلي، وأمّا أنت، يا مارسو إذا وصل ثالث، فسيكون لك». قلت: «نعم» ووضع ماسون يديه في جيبه. كان الرمل الملتهب يبدو لي أحمر حينها. وكنّا نتقدّم بخطوات متساوقة نحو العربيّين، وقد قصرت المسافة بيننا بانتظام. عندما وصلنا على بعد خطوات، بعضنا من

بعض، توقّف العربيّان. خفّفنا مسيرنا أنا وماسون. توجّه ريمون رأسًا نحو رَجُله. لم أسمع جيّدًا ما قاله له، ولكنّ الآخر تظاهر بأنّه يضربه على رأسه. وضرب ريمون إذ ذاك للمرّة الأولى، وفي الحال نادى ماسون. ذهب ماسون إلى العربي الذي كان قد عيّنه له ريمون فضربه ضربتين بكلّ قواه. انكبّ العربي في الماء، ووجهه غاطس، وظلّ هكذا عدّة لحظات، وفقاقيعُ تنفجر على سطح الماء حول رأسه. في هذه الأثناء، ضرب ريمون ضربة أخرى، وكان وجه العربي الآخر يسيل منه الدم. تلفّت ريمون نحوي وقال: «سترى ماذا سيأخذ». صرختُ به «انتبه، إنّه يحمل سكّينًا». لكنّ ذراع ريمون كانت قد جُرحت، وفمه قد شُطب.

قفز ماسون قفزةً إلى الأمام. ولكنّ العربي الآخر كان قد نهض ووقف خلف العربي الذي كان مسلّحًا. لم نجرؤ على أن نتحرّك. تراجعا ببطء، من غير أن يتوقّفا عن النظر إلينا وعن إبقائنا بلا حراك أمام السكّين. وعندما لاحظا أنّهما يملكان مجالاً واسعًا، لاذا سريعًا بالفرار، بينما ظللنا نحن مسمّرين تحت الشمس وكان ريمون يشدّ إليه ذراعه التي كانت تقطر دمًا.

في الحال، قال ماسون إنّ ثمّة طبيبًا يمضي آحاده على الشاطئ. أراد ريمون أن يذهب إليه على الفور.

ولكنْ كلّما تكلّم كان دمُ جرحه يحدث فقاقيع في فمه. أسندناه وعدنا إلى الكوخ بأسرع وقت ممكن. هناك قال ريمون إنّ جروحه سطحيّة وإنّ باستطاعته أن يذهب إلى الطبيب. ذهب ريمون مع ماسون بينما بقيت مع المرأتين لأشرح لهما ما حدث. كانت السيّدة ماسون تبكي، وكانت ماري شديدة الشحوب. أمّا أنا فقد كان يزعجني أن أشرح لهما، وانتهيت بأن سكتّ ودخّنت وأنا أنظر إلى البحر.

عاد ريمون مع ماسون حوالى الساعة الواحدة والنصف. كانت ذراعه مضمّدة وعلى زاوية فمه شرائط ملصقة. قال الطبيب له إنّ الأمر بسيط؛ ولكنّ ريمون بدا كئيبًا جدًّا. حاول ماسون أن يُضحكه. ولكنّه ظلّ على صمته. وعندما قال إنّه هابط إلى الشاطئ، سألته إلى أين هو ذاهب. وقلنا، أنا وماسون، إنّنا سنرافقه. عندها، غضب وأخذ يشتمنا. صرّح ماسون بأنّه كان ينبغي أن لا نعاكسه. ولكنّني تبعته مع ذلك.

مشينا طويلاً على الشاطئ. كانت الشمس الآن ساحقة. وكانت تتكسّر شظايا على الرمل وعلى البحر. حدستُ بأنّ ريمون يعرف إلى أين يذهب، ولكنّ ذلك كان خطأ بلا شكّ. عند الطرف الآخر من الشاطئ، وصلنا أخيرًا إلى نبع صغير كان يسيل في الرمل، خلف صخرة

ضخمة. هناك، وجدنا العربيّين. كانا مضطجعين في ثوبيهما الكحليّين الملطّخين. وكانا يبدوان هادئين تمامًا ومسرورين تقريبًا. ولم يغيّر حضورُنا أيّ شيء. كان العربي الذي ضرب ريمون ينظر إليه من غير أن يقول شيئًا. وكان الآخر ينفخ في قصبة صغيرة ويردّد بلا انقطاع، وهو ينظر إلينا بطرف عينه، النغماتِ الثلاثَ التي كانت آلتُه تبعثها.

خلال هذا الوقت كلّه، لم يكن ثمّة إلّا الشمس وهذا الصمت، مع صوت النبع الخفيف والنغمات الثلاث. مدّ ريمون يده إلى جيب مسدّسه، ولكنّ الآخر لم يتحرّك وظلاّ يتبادلان النظرات. لاحظتُ أنّ أصابعَ قدمَيْ لاعب الناي متباعدة جدًّا. سألني ريمون، من غير أن يكفّ عن النظر إلى غريمه: «هل أقتله؟» فكّرتُ أنّني لو قلت لا فسوف يتحمّس من تلقاء نفسه وسيطلق حتمًا. فاكتفيتُ بأن قلت له: «إنّه لم يحدّثك بعد، وإنّ من الحماقة أن تطلق هكذا». سمعنا مرّة أخرى خريرَ الينبوع وصوتَ الناي الخفيف في قلب الصمت والحرّ. ثم قال ريمون: «إذن، سأشْتُمه، وحين يجيب، سأقتله». أجبته: «أجل. ولكن إنْ لم يخرج سكّينه، فإنّك لا تستطيع أن تطلق». أخذ ريمون يهتاج قليلاً. وكان الآخر ما يزال ينفخ في نايه وكانا يتأمّلان كلّ حركة تصدر من ريمون. قلت لريمون: «لا، صارعه مصارعةَ رجلٍ لرجل وأعطني مسدّسك. فإذا تدخّل

الآخر، وسحب سكّينه، فسأقتله».

حين أعطاني ريمون مسدّسه، انزلقت الشمسُ فوقه. ومع ذلك، فقد ظللنا جامدين كأنّ كلّ شيء انغلق حولنا. كنّا نتبادل النظرات من دون أن نخفض عيوننا، وكان كلّ شيء يتوقّف هنا بين البحر والرمل والشمس، وصمت الناي والماء. فكّرت في هذه اللحظة أنّ بوسع المرء أن يطلق أو لا يطلق. ولكنّ العربيّين تقهقرا فجأة واختفيا خلف الصخرة. عدنا، أنا وريمون أدراجنا. كان يبدو أكثر ارتياحًا، وتحدّث عن أوتوبيس العودة.

رافقتُه حتى الكوخ الصيفي. وبينما كان يتسلّق السلّم الخشبي بقيتُ أمام الدرجة الأولى، ورأسي يطنّ من الشمس، وأنا شبه يائس أمام المجهود الذي كان ينبغي أن أقوم به لأصعد الطابق الخشبي وأتحدّث ثانيةً إلى المرأتين. ولكنّ الحرّ كان شديدًا حتى شقّ عليّ كثيرًا أن أبقى جامدًا تحت المطر المُعمي الذي كان يتساقط من السماء. فالبقاء هنا أو الذهاب سيّان. وبعد لحظة، عدت إلى الشاطئ، وأخذت أمشي.

كان ذلك الوهج الأحمر نفسه. وعلى الرمل، كان البحر يلهث بكلّ تنفّس أمواجه الصغيرة السريع والمختنق. كنت أمشي ببطء نحو الصخور وأحسّ بجبيني ينتفخ تحت الشمس. وكانت هذه الحرارة كلّها تتركّز عليّ وتعارض

تقدّمي. وكلّما أحسستُ لفحة الحرارة الكبيرة والملتهبة على وجهي، كززتُ على أسناني وشددتُ على قبضتيّ في جيبي بنطالي، وتوتّرت كلّيًّا لأنتصر على الشمس وعلى هذا السُكر الكثيف الذي كانت تصبّه عليّ. وعند كلّ سيف أشعّة ينبثق من الرمل، أو من الصدف المبيضّ، أو من شظيّة زجاج، كان فكّاي يتشنّجان. ومشيت طويلاً.

من بعيد كنت أرى كتلة الصخر الصغيرة الداكنة، محاطةً بهالة تغشي البصر من الأشعّة وغبار البحر. وكنت أفكّر بالنبع البارد خلف الصخرة. كانت بي رغبة إلى الالتقاء ثانية بخرير مياهه، وإلى الهرب من الشمس والجهد، وبكاء النسوة، وإلى أن أجد أخيرًا الظلّ وراحته. ولكن عندما اقتربت أكثر من ذي قبل، رأيت أنّ رَجُلَ ريمون كان قد عاد.

كان وحيدًا. وكان مستلقيًا على ظهره، ويداه تحت رقبته، وجبينه في ظلال الصخرة، وجسمه كلّه في الشمس. وكان لباسه الأزرق يدخّن في الحرارة. أخذتني الدهشة قليلاً. فلقد كانت القصّة بالنسبة إليّ منتهية، وكنت قد أتيت إلى هنا من غير أن أفكّر في شيء.

ما إن رآني حتى نهض قليلاً ومدّ يده إلى جيبه. شددتُ أنا بالطبع على مسدّس ريمون الذي كنت أحمله في سترتي. وإذ ذاك تراجع من جديد إلى الوراء، ولكن من غير أن يخرج يده من جيبه. كنت بعيدًا بعض الشيء

عنه، على بعد عشرة أمتار تقريبًا. وكنت أحزر نظرته من بين أهدابه نصف المغلقة؛ ولكنّ صورته كانت في أغلب الأحيان تتراقص أمام عينيّ، في الهواء الملتهب. كان هدير الأمواج ما يزال أشدّ كسلاً، وأكثر تطاولاً ممّا كان عند الظهيرة. وكانت الشمس نفسها، والأشعّة نفسها على الرمل نفسه، هي التي تتمدّد هنا. وكانت ساعتان قد مضتا، ومع ذلك فالنهار لم يكن ليتقدّم قطّ. كان قد ألقى، منذ ساعتين، المرساة في محيط من المعدن المغلي. وفي الأفق، مرّ بخارٌ خفيف، فاكتشفتُ منه البقعة السوداء على طرف نظري، لأنّني لم أكفّ عن النظر إلى العربي.

فكّرتُ في أنّه لم يكن لي إلّا أن أقوم بنصف دورة وينتهي كلّ شيء. لكنّ شاطئًا راعشًا من الشمس كان يزدحم خلفي برمّته. تقدّمتُ بضع خطوات نحو النبع فلم يتحرّك العربي، بالرّغم من كلّ شيء. كان ما يزال بعيدًا بعض الشيء ربّما بسبب الظلال على وجهه، وكان يبدو عليه أنّه يضحك. انتظرتُ. كانت حرقة الشمس تلهب وجنتي، وأحسست بقطرات عرق تتراكم في حاجبي. لقد كانت تلك هي شمسَ النهار نفسها التي دفنتُ فيها أمِّي. وكذلك اليوم كان جبيني بنوع خاصّ يؤلمني، وكانت جميع شرايينه تخفق معًا تحت الجلد. وبسبب هذا الاحتراق الذي لم أكن أستطيع أن أتحمّله، قمت بحركة إلى الأمام.

كنت أعلم أنّ ذلك بليد، وأنّني لن أتخلّص من الشمس بتقدّمي خطوةً. ولكنّني قمت بخطوة، خطوة واحدة إلى الأمام. هذه المرّة، ومن غير أن ينهض، سحب العربي سكّينه التي عرضها أمامي في الشمس. ولطّخ النور القصدير، فكان كشفرة طويلة لمّاعة تضربني في الجبين. في اللحظة ذاتها، كان العرق المتراكم في حاجبي يسيل دفعةً واحدةً على الجفنين ويغطّيهما بوشاح دافئ وسميك. وكانت عيناي عمياوين خلف هذا الستار من الدموع والملح. ولم أكن أحسّ بعد إلّا صنوجَ الشمس على جبيني، ومن دون تمييز، حدّ السكّين اللمّاع الماثل أبدًا أمامي. وكان هذا السيف الملتهب يقرض أهدابي وينقّب عينيّ المتألّمتين. إذ ذاك ترنّح كلّ شيء. وبعث البحر بلفحة سميكة وملتهبة. وخيّل لي أنّ السماء كانت تنفتح بكلّ اتّساعها لكي تمطر النار. تمدّد كياني كلّه وتشنّجت يدي على المسدّس. فاستجاب نابض المسدّس، ولمست بطن الخشب المالس. وهنا وسط الضجّة الجافّة والتي تصمّ الآذان في وقت معًا، ابتدأ كلّ شيء: نفضتُ العرق والشمس؛ وأدركت أنّني هدمتُ توازن النهار، وصمت شاطئ استثنائي كنت سعيدًا فوقه. وإذ ذاك، أطلقت أيضًا أربع مرّات على جسم لا حراك فيه. كانت الرصاصات تنغرز فيه من غير أن يبدو شيء عليه. وكانت أربع ضربات موجزة أطرقها على باب الشقاء.

القسم الثاني

١

بعد توقيفي مباشرةً، استُجوبتُ عدّة مرّات. لكنّ الاستجوابات كانت لمعرفة الهويّة ولم تدم طويلاً. ففي المرّة الأولى كان يخيّل إليّ، في المخفر، أنّ قضيّتي تهمّني شخصيًّا. وبعد ثمانية أيّام، نظر إليّ قاضي التحقيق، في فضول، ولكنّه، في أوّل الأمر، سألني فقط عن اسمي، وعن عنواني، وعن مهنتي، وتاريخ ولادتي ومكانها. ثم أراد أن يعرف إن اخترتُ محاميًا. فاعترفت أنْ لا، وسألتُه هل من الضروري حتمًا اختيار محام. سألني «لماذا؟». فأجبتُ إنّني أرى أنّ قضيّتي بسيطة جدًّا. ابتسم وهو يقول: «إنّ هذا رأي. ومع ذلك، فالقانون هنا؛ فإن لم تختر محاميًا، عيّنّا لك واحدًا من المحكمة». وجدتُ أنّ من المريح أن تتكفّل العدالة بهذه التفاصيل.

وقلت له ذلك. فوافقني وختم بأنّ القانون كان مصنوعًا صنعًا جيّدًا.

في بداية الأمر لم آخذه على مأخذ الجدّ. كان قد استقبلني في غرفة ذات ستائر، وعلى مكتبه مصباح ينير المقعدَ الذي أجلسني عليه، بينما بقي هو في الظلّ. وكنتُ قد قرأت ما يشبه ذلك في الكتب فبدا لي ذلك كلّه تمثيلاً. أمّا بعد محادثتنا، فقد نظرت إليه ورأيت، خلافًا لما تصوّرت، رجلاً ذا ملامح دقيقة، وعينين زرقاوين غارقتين، وقامة طويلة، وشاربين رماديّين، وشعر غزير يكاد يكون أشيب. وبدا لي منطقيًّا، وبالإجمال، جذّابًا بالرّغم من بعض التشنّجات العصبيّة التي تشدّ فمه، حتى إنّي أوشكتُ أن أمدّ له يدي وأنا خارج، ولكنّي تذكّرت في الوقت المناسب أنّني قد قتلتُ رجلاً.

في اليوم التالي، قَدِم محام ليراني في السجن. كان قصير القامة ممتلئًا، شابًّا تقريبًا، وشعره مسرّحًا بعناية. وبالرّغم من الحرّ (وكنت بكمّ قصير) فقد كان يرتدي لباسًا غامقًا، وياقة منشّاة، وربطةَ عنق غريبة، ذات خطوط ضخمة سوداء وبيضاء. وضع على سريري المحفظة التي كان يحملها تحت ذراعه، وقدّم نفسه وقال لي إنّه درس ملفّي، فوجد قضيّتي دقيقةً، ولكنّه لم يكن يشكّ في النجاح، إذا أنا وثقت به. شكرتُه وقال لي: «لندخل في صلب الموضوع».

جلس على السرير وشرح لي أنّ ثمّة معلومات عن حياتي الخاصّة باتت معروفة. فقد عُلم أنّ أمِّي ماتت مؤخّرًا في المأوى، وعندها جرى تحقيق في مارنغو، وكان المفتّشون قد علموا أنّني «أثبتُّ عدم الإحساس» يوم دفن أمِّي. وقال لي المحامي: «أنت تعلم أنّ سؤالي لك في هذا الموضوع يزعجني، ولكنّ ذلك مهمّ جدًّا. وسوف يكون حجّة ضخمة للاتّهام، إذا لم أجد شيئًا أردّ به». كان يودّ أن أساعده. فسألني إنْ حزنتُ في ذلك اليوم. أدهشني السؤال كثيرًا، وخُيِّل إليّ أنّني سأرتبك كثيرًا لو كان عليّ أن أطرحه. على أنِّي أجبته بأنّني فقدتُ قليلاً عادة التساؤل، وأنّه يصعب عليّ إفادته؛ فممّا لا شكّ فيه أنّني كنت أحبّ أمِّي كثيرًا. ولكنّ ذلك لم يكن يعني شيئًا. إنّ جميع الأشخاص الأصحّاء قد تمنّوا تقريبًا موتَ الذين كانوا يحبّونهم. هنا، قاطعني المحامي، وبدا أنّه مضطرب. وحملني على أن أعده بألّا أقول ذلك أمام الحضور، ولا عند قاضي التحقيق. غير أنِّي شرحت له أنّ لي طبيعة خاصّة، بحيث إنّ حاجاتي الجسميّة غالبًا تزعج عواطفي. فيوم دُفنتْ أمِّي، كنت تعبًا جدًّا، ونعسًا، بحيث لم أستطع أن أعرف ما كان يجري، وما أستطيع أن أقوله بكلّ تأكيد هو أنّني كنت أفضّل لو لم تمت أمِّي. ولكنْ لم يبدُ على محاميّ السرور. وقال لي: «إنّ هذا لا يكفي».

فكّر، وسألني إن كان يستطيع أن يقول إنّني، في ذلك اليوم، سيطرتُ على عواطفي الطبيعيّة. فقلت له: «لا، لأنّ ذلك غير صحيح». فنظر إليّ بطريقة غريبة كأنّني أوحيتُ له بشيء من الاشمئزاز. وقال لي بشيء من الخبث: في جميع الأحوال، سيتمّ الاستماع إلى إفادات مدير المأوى ومعاونيه كشهود، «وذلك قد يلعب دورًا سيّئًا جدًّا بالنسبة إليّ». وجعلته يلاحظ أنّ هذه القصّة لا علاقة لها بقضيّتي، ولكنّه أجابني فقط بأنّه كان واضحًا أنّني لم يسبق لي قطّ أن كانت لي صلات بالعدالة.

ذهب غاضبًا. كنت أودّ أن أمسكه، وأن أشرح له أنّني كنت أرغب في مودّته، لا لكي يُدافع عنّي بمزيد من القوّة، بل بطريقة طبيعيّة، إذا صحّ التعبير. وقد رأيتُ أنّني وضعته موضعًا غير مريح. لم يكن يفهمني، وكان يحقد عليّ بعض الشيء. ولقد كانت بي رغبةٌ في أن أؤكّد له أنّني كنت كسائر الناس، تمامًا كسائر الناس. ولكنّ هذا كلّه، في الحقيقة، لم يكن بذي فائدة كبرى، فعدلتُ عنه بدافع الكسل.

بعد وقت قصير، اقتادوني من جديد أمام قاضي التحقيق. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وهذه المرّة، كان مكتبه مغمورًا بأشعّة تتسلّل من ستار من القماش الشفّاف. كان الحرّ شديدًا جدًّا. أجلسني، وبكثير من

الأدب، أبلغني أنّ محاميّ «نتيجةً لظرف معاكس» لم يستطع أن يحضر، ولكنْ كنت أملك الحقّ بأن لا أجيب على أسئلته، وأن أنتظر حتى يستطيع محاميّ أن يحضر. قلت إنّني أستطيع أن أجيب وحدي. لامس بأصبعه زرًّا على الطاولة. فتقدّم كاتبٌ عدلٌ شابّ ليستقرّ في ظهري تقريبًا.

استرخيْنا في مقعدينا، وابتدأ الاستجواب. في بادئ الأمر قال لي إنّني أوصف بأنّي ذو طبع صموت ومغلق على ذاته، وكان يودّ أن يعرف رأيي في ذلك، فأجبت: «هذا لأنّه ليس لديّ شيء كثير أقوله، ولذا أسكت». فابتسم كما ابتسم في المرّة السابقة، واعترف بأنّ ذلك خيرُ الأسباب. وأضاف: «ثم إنّ ذلك لا أهمّيّة له على الإطلاق». صمت، ونظر إليّ، ثم استقام بطريقة فجائيّة بعض الشيء ليقول لي بسرعة فائقة: «إنّ ما يهمّني هو أنت». لم أفهم جيّدًا ما كان يقصده ولم أجب بشيء. وأضاف: «هنالك أشياء تفوتني في قضيّتك. وأنا متأكّد أنّك ستساعدني على فهمها». قلت إنّ كلّ شيء كان غاية في البساطة. واستعجلني بأن أعاود وصفَ نهاري. فأعدت وصفَ ما سبق لي أن قصصته عليه: ريمون، والشاطئ، والحمّام، والخصام، والشاطئ أيضًا، والنبع الصغير، والشمس، وطلقات المسدّس الخمس. وعند كلّ جملة كان يقول: «حسنًا، حسنًا». وعندما وصلتُ إلى الجسد

الممدّد، وافق وهو يقول: «حسنًا». أمّا أنا فقد أتعبني أن أعيد القصّة نفسها، وكان يخيّل لي أنّه لم يسبق أن تكلّمت إلى هذا الحدّ.

بعد فترة صمت، نهض وقال لي إنّه كان يودّ أن يساعدني، وإنّني كنت أثير اهتمامه، وإنّه، بعون الله، سيفعل شيئًا من أجلي. ولكنّه كان يريد، قبل ذلك، أن يطرح عليّ بعض الأسئلة الأخرى. وبلا مقدِّمة، سألني إن كنت أحبّ أمّي. فقلت: «نعم كجميع الناس». ولا بدّ أنّ كاتب العدل، الذي كان، حتى الآن، يضرب بانتظام على آلته، قد أخطأ الضرب، لأنّه ارتبك وكان عليه أن يعود إلى ما سبق. سألني القاضي، بلا منطق ظاهر دائمًا، إن كنت قد أطلقت طلقات المسدّس الخمس تباعًا. فكّرتُ وبيّنتُ أنّني أطلقت مرّة واحدة في بادئ الأمر، ثم أطلقت، بعد عدّة ثوان، الطلقاتِ الأربعَ الأخرى. عندها قال: «لماذا انتظرتَ بين الطلقة الأولى والطلقة الثانية؟». ومرّةً أخرى، عاودني منظرُ الشاطئ الأحمر، وأحسست على جبيني حرقة الشمس. ولكنِّي لم أجب بشيء، هذه المرّة. وفي أثناء فترة الصمت كلّه التي تلت، كان يبدو الاهتياجُ على الحاكم. فلقد جلس وأخذ يلعب بشعره، ووضع مرفقيه على مكتبه، وانحنى قليلاً نحوي بهيئة غريبة: «لماذا؟ لماذا أطلقتَ على جسد متمدّد أرضًا؟». هنا أيضًا، لم أعرف كيف أجيب. مرّر القاضي يديه على

جبينه وردّد سؤاله بصوت معتكر بعض الشيء: «لماذا؟ يجب أن تقول لي، لماذا؟» وكنت ألتزم الصمت.

نهض فجأةً، ومشى بخطوات كبيرة نحو طرف مكتبه وفتح درجًا في خزانة كتب، وأخرج منه مسيحًا مصلوبًا من الفضّة، شَهَرَه وهو يعود إليّ. وبصوت متغيّر تمامًا يكاد يكون مرتجفًا، صرخ: «أتعرفُه، هذا؟» قلت: «نعم بالطبع». عندها قال لي بسرعة وبلهجة متحمّسة إنّه مؤمن بالله، وإنّه يعتقد أنْ لا مذنبًا إلى حدّ لا يُمْكن اللهَ أن يَغفر له قطّ، ولكنّ ذلك يتطلّب من الإنسان أن يغدو، بندمه، كطفل روحه خالية، ومستعدّ لالتقاط كلّ شيء. ولقد كان جسمه كلّه منحنيًا على الطاولة، وكان يحرّك صليبه فوقي تقريبًا. والحقّ أقول إنّي لم أتابعه إلّا متابعة سيّئة في حجّته، لأنّني كنت أوّلاً أعاني الحرَّ، ولأنّ ذبابات كبيرة في مكتبه استقرّت على وجهي، ثم لأنّه كان أيضًا يخيفني قليلاً. وكنت أعترف في الوقت نفسه بأنّ ذلك مضحك، لأنّني كنت أنا المجرم في نهاية المطاف. ومع ذلك فقد تابع. ولقد فهمت تقريبًا أنْ ليس ثمّة، في رأيه، سوى نقطة واحدة غامضة في اعترافي، وهي أنّني انتظرتُ لأطلق طلقة المسدّس الثانية. أمّا الباقي، فقد كان جيّدًا، ولكنّ هذا، لم يكن يفهمه.

كنت على وشك أن أقول له إنّه مخطئ في إصراره:

فهذه النقطة الأخيرة ليست لها هذه الأهمّيّة الكبرى. ولكنّه قاطعني واستحثّني مرّةً أخيرة، وهو منتصب بكلّ قامته، لأجيبَه إنْ كنت أؤمن بالله، فنفيتُ. جلس ساخطًا. وقال لي إنّ ذلك مستحيل، وإنّ جميع الناس يؤمنون بالله، حتى الذين يحيدون عن وجهه. كانت تلك عقيدته؛ وإنْ كان عليه يومًا أن يشكّ فيها، فلن يكون لحياته معنى بعدُ. صرخ: «هل تريد ألّا يكون لحياتي معنى؟». في رأيي أنّ ذلك لم يكن يعنيني. ولقد قلت له هذا. ولكنّه كان، عبر الطاولة، يقرّب المسيح أمام عينيّ ويصرخ بطريقة لامعقولة: «أنا مسيحي، وإنّني أطلب الغفران عن أخطائك من هذا. كيف تستطيع ألّا تؤمن بأنّه قد تعذّب من أجلك؟». لاحظتُ جيّدًا أنّه كان يرفع الكلفة معي، ولكنّني تعبتُ من ذلك. كانت الحرارة ترتفع شيئًا فشيئًا. وكالعادة عندما تكون بي رغبة في التخلّص من شخص أكاد لا أصغي إليه، فقد بدا عليّ أنّني أوافقه. لقد انتصر، على دهشة منّي. وكان يقول: «هل ترى، هل ترى، ألستَ تؤمن وتريد أن تعترف له؟» وبالطبع، فقد أجبتُ بالنفي مرّةً أخرى. فسقط في مقعده من جديد.

كان يبدو عليه التعبُ الشديد، وظلّ لحظةً صامتًا، بينما كانت الآلة، التي ما كانت قطّ لتتوقّف عن متابعة الحوار، تتابع أيضًا العبارات الأخيرة. ثم نظر إليّ بانتباه،

وبشيء من الحزن، وتمتم: «لم أر قطّ نفسًا قاسية كنفسك، فالمجرمون الذين مرّوا أمامي كانوا يبكون دائمًا أمام صورة الألم هذه». كنت على وشك أن أجيب أنّ ذلك يحصل لأنّهم كانوا حقًّا مجرمين. ولكنّني فكّرت في أنّني مثلُهم. وكانت هذه فكرة لم أستطع أن أتقبّلها. عندها نهض القاضي، كأنّه يشير إلى أنّ الاستجواب انتهى. وسألني فقط، بهيئته المتعبة نفسها، إنْ كنت نادمًا على عملي. فكّرت وقلت إنّني أحسّ بدلاً من الندم الحقيقي، نوعًا من الانزعاج. أحسست أنّه لم يفهمني. ولكنْ، في ذلك اليوم، لم تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك.

فيما بعد رأيتُ قاضي التحقيق مرّات كثيرة، ولكنّي كنت برفقة المحامي في كلّ مرّة. وكانا يكتفيان بأن أوضّح بعض النُّقَط من تصريحاتي السابقة. أو كان القاضي يناقش أيضًا حججي مع المحامي. ولكنّهما لم يكونا في الواقع يهتمّان بي أبدًا في تلك اللحظات. وعلى كلّ حال، فإنّ لهجة الاستجوابات تغيّرتْ شيئًا فشيئًا. وكان يبدو أنّ القاضي كفّ عن أن يهتمّ بي وأنّه قد بتّ في قضيّتي نوعًا ما. لم يحدّثني ثانيةً عن الله، ولم أره في حالة الاهتياج التي رأيتُه فيها ذلك اليوم الأوّل. وكانت النتيجة أنّ محادثاتنا أصبحت أكثر ودِّيّة؛ بضعة أسئلة، وحديث طفيف

مع محاميّ، وتنتهي الاستجوابات. كانت قضيّتي تتبع مجراها، على حدّ تعبير القاضي نفسه. وفي بعض الأحيان أيضًا، عندما كان الحديث ذا طابع عامّ، فقد كانا يشركانني فيه، وكنت أبتدئ بالتنفّس. فلم يكن ثمّة، في هذه الساعات، من هو خبيث معي. كان كلّ شيء طبيعيًّا، منظّمًا، دقيقًا إلى حدّ أنِّي أحسستُ بشعور مضحك: أنّني «أصبحت فردًا من العائلة». وخلال الأحد عشر شهرًا التي استغرقتْها هذه التحقيقات، أستطيع أن أقول إنّني كدتُ أندهش من عدم ابتهاجي بشيءٍ ابتهاجي بتلك اللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها إلى باب مكتبه وهو يربّت على كتفي ويقول بلهجة ودّيّة: «يكفي اليوم، يا سيّد «ضدّ المسيح»، قبل أن يتسلّمني البوليس.

٢

هنالك أشياء لم أحبّ قطّ أن أتحدّث عنها. حين دخلتُ السجن، عرفتُ بعد بضعة أيّام أنّني لن أحبّ أبدًا أن أتحدّث عن هذا الجزء من حياتي.

فيما بعد، لم أعد أجد أهمّيّةً لهذا النفور. فالواقع أنّني لم أوضع في السجن حقًّا في الأيّام الأولى: كنت أنتظر بغموض حادثًا ما جديدًا، ولكنْ، بعد زيارة ماري الأولى والوحيدة، بدأ كلّ شيء. فمنذ اليوم الذي تلقّيت فيه رسالتها (وكانت تقول إنّهم لن يسمحوا لها بعد بزيارتي لأنّها لم تكن زوجتي)، منذ هذا اليوم، شعرت أنّني كنت في بيتي، وأنا في زنزانتي، وأنّ حياتي كانت تتوقّف عندها. ويوم توقيفي، حُبست بادئ الأمر في غرفة تضمّ عدّة موقوفين، معظمُهم من العرب. وقد ضحكوا حين

رأوني. ثم سألوني ما فعلتُ، فقلت إنّني قتلت عربيًا، فالتزموا الصمت. لكنْ بعد فترة، هبط المساء، فشرحوا لي كيف يجب أن أرتّب الحصير الذي سأنام عليه. كان يكفي أن أطوي أحد طرفيه لأجعل منه وسادة. طوال الليل ركض على وجهي بقّ كثير. وبعد أيّام، أُفردتُ في زنزانة كنت أنام فيها على لوح خشبي. وكان لي وعاء خشبي أستعمله مرحاضًا وآنيةٌ صغيرةٌ من الحديد. كان السجن في مكان مرتفع من المدينة، وكنتُ أستطيع من نافذة صغيرة أن أرى البحر. وقد حدث أن تسلّقتُ يومًا النافذة، ووجهي ممدود نحو النور، حين دخل عليّ حارس وقال لي إنّ هناك من يريد زيارتي. فكّرت أنّها ماري. وكانت هي بالفعل.

اجتزت، في طريقي إلى قاعة الاستقبال، ممرًّا طويلاً، ثم سلّمًا، ثم ممرًّا آخر. دخلتُ غرفة كبيرة جدًّا مضاءة بكوّة واسعة. وكانت القاعة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام بحاجزين كبيرين يقسّمانها طولاً. وبين الحاجزين كانت ثمّة مسافة تتراوح بين الثمانية أمتار والعشرة أمتار تفصل بين الزوّار والمسجونين. رأيت ماري تواجهني بثوبها المخطّط ووجهها المسمرّ. ولقد كان إلى جانبي عشرة موقوفين، أغلبُهم منَ العرب. كانت ماري محاطة بالمغاربة، وموجودةً بين زائرتين: عجوز قصيرة مزمومة الشفتين متّشحة

بالسواد، وامرأة ضخمة حسيرة الشعر تتكلّم بصوت مرتفع وبكثير من الحركات. وبسبب المسافة بين الحواجز، اضطُرّ الزائرون والمسجونون إلى التحدّث بصوت عالٍ جدًّا. وعندما دخلت، كان ضجيج الأصوات المتصادية على جدران الغرفة العالية العارية، والأشعّةُ الفجّة التي تسيل من السماء على الزجاج وتنفجر في الغرفة، يحدثان لي نوعًا من الدوار. لقد كانت زنزانتي أوفر هدوءًا وأكثر عتمة. وكان يلزمني بضع ثوان لأعتاد ذلك. ومع ذلك، فقد رأيت كلّ وجه بوضوح، في غمرة النهار. ولاحظتُ أنّ حارسًا كان يجلس عند طرف الممرّ بين الحاجزين. كان معظم المسجونين العرب، كعائلاتهم، يجلسون القرفصاء وجهًا لوجه، ولم يكونوا يصرخون. وبالرّغم من الضجيج، فقد تدبّروا أن يسمع بعضُهم بعضًا وهم يتحدّثون بصوت منخفض جدًّا. كان همسهم الأصمّ، المنطلق من تحت، يشكّل ترجيعًا متواصلاً للأحاديث المنعقدة فوق رؤوسهم. وقد لاحظت هذا كلّه بسرعة وأنا أتقدّم نحو ماري، التي كانت ملتصقة بالقضبان، وكانت تبتسم لي بكلّ قواها. وقد وجدتها جميلة جدًّا، لكنّني لم أعرف كيف أعبّر لها عن ذلك.

قالت لي بصوت مرتفع جدًّا:

ـ وإذن؟

ـ وإذن، هأنذا.

ـ هل أنت مرتاح، ألديك كلّ ما تريد؟

ـ نعم، كلّ شيء.

صمتنا، وكانت ماري ما تزال تبتسم. وكانت المرأة الضخمة تصرخ في وجه جاري، زوجِها من غير شكّ، وكان رجلاً أشقر صريح النظرات. كانت تلك تتمّةَ حديث سابق.

كانت تصيح بصوت عالٍ:

ـ جان لم تقبل أن تأخذه.

فيجيب الرجل:

ـ نعم، نعم..

ـ وقلتُ لها إنّك ستأخذه حين تخرج. ولكنّها لم ترضَ أن تأخذه.

أمّا ماري فصرختْ أنّ ريمون يسلّم عليّ، فقلتُ: «شكرًا». لكنّ صوتي غطّى عليه صوتُ جاري الذي سأل: «هل كان في صحّة جيّدة». فضحكت امرأته وهي تقول: «إنّه لم يسبق أن كان بمثل تلك الصحّة». وأمّا جاري من جهة اليسار، وهو شابٌ قصير ناعم اليدين، فلم يكن يقول

شيئًا. ولاحظت أنّه كان مقابل العجوز القصيرة، وأنّ كلًّا منهما كان ينظر إلى الآخر بحدّة. لكنّني لم أجد الوقت لأتأمّلهما أكثر من ذلك، لأنّ ماري صرخت بي قائلةً إنّ على المرء أن يأمل. قلت: «نعم» وفي الوقت نفسه كنت أنظر إليها، وكانت تأخذني الرغبة في أن أضمّ كتفها من فوق ردائها، إذ كنتُ أشتهي هذا القماش الناعم. لم أكن أعرف جيّدًا ماذا ينبغي أن آمل في ما يتعدّى ذلك، ولكنّ ذلك كان بلا شكّ ما كانت ماري تعنيه لأنّها كانت ما تزال تبتسم؛ ولم أكن أرى بعدُ سوى تألّق أسنانها وثنيّاتِ عينيها الصغيرة. صرختْ من جديد: «ستخرج وسوف نتزوّج». فأجبت: «هل تظنّين ذلك؟» ولكنّ ذلك كان لمجرّد أن أقول شيئًا. وعندها، قالت بسرعة فائقة وبصوت مرتفع أنْ نعم، وإنّني سوف أُبرّأ وسنستحمّ أيضًا. ولكنّ المرأة الأخرى كانت تصيح من جهتها، وكانت تقول إنّها تركتْ سلّة في قلم المحكمة، وكانت تعدّد كلّ ما وضعتْه فيها. وكان يجب التحقيق في هذا، لأنّ ذلك كلّه يكلّف غاليًا. وكان جاري الآخر وأمّه ما يزالان يتبادلان النظرات. وكان همس العرب يستمرّ من تحتنا. وفي الخارج بدت الشمس وكأنّها تنتفخ عند الكوّة.

كنت أحسّني مريضًا بعض الشيء، وكنت أودّ أن أذهب. كان الضجيج يؤلمني. ولكنّي كنت أودّ أن أنعم

بعدُ بحضور ماري. ولا أدري كم من الوقت انقضى. حدّثتني ماري عن عملها، وكانت تبتسم بلا انقطاع. وكان الهمس، والصرخات، والمحادثات تتصادم. وكانت جزيرة الصمت الوحيدة تقبع إلى جانبي، ممثَّلَةً في هذا الشابّ القصير وهذه العجوز اللذين كانا يتبادلان النظرات. بعد قليل، اقتيد العربُ. فصمت الجميع تقريبًا منذ أن خرج أوُّلهم. اقتربت العجوز القصيرة من القضبان، وفي الوقت نفسه، أشار حارس إلى ابنها. فقال: «إلى اللقاء، يا أمِّي». وأمرّت يدها بين قضيبين لتشير إليه بحركة صغيرة بطيئة ومتّصلة.

ذهبتْ، بينما دخل رجل، واتّخذ مكانَها وهو يحمل قبّعته في يده. ودخل مسجون فأخذا يتبادلان الحديث، بحيويّة، ولكنْ بصوت منخفض، لأنّ القاعة استعادت صمتها. ثم أتى من اقتاد جاري من جهة اليمين، فقالت له زوجته، من غير أن تخفض صوتها، وكأنّها لم تلاحظْ أنّه لم يعد ثمّة داعٍ للصراخ: «اعتنِ بنفسك. وانتبهْ». ثم أتى دوري. قبّلتني ماري في الهواء والتفتّ قبل أن أختفي. كانت ما تزال جامدة، وكان وجهها منسحقًا على القضبان، وعلى شفتيها الابتسامة الممزّقة المتشنّجة نفسها.

بعد فترة قصيرة، كتبتْ لي. وابتداءً من هذه اللحظة ابتدأت الأشياءُ التي لم أكن أحبّ قطّ التحدّث عنها.

وعلى كلّ حال يجب ألّا نبالغ في أيّ أمرٍ. لقد كان ذلك أسهل بالنسبة إليّ من الآخرين. على أنّ أقسى ما في الأمر هو أنّي، في بدء توقيفي، كانت لديّ أفكارُ رجل حرّ. من ذلك مثلاً أنّ الرغبة كانت تأخذني في أن أكون على شاطئ، وفي أن أهبط إلى البحر. وكان يكفي أن أتخيّل صوتَ الموجات الأولى تحت باطن قدمي، وانزلاقَ الجسد في الماء، والخلاصَ الذي كنت أجده في ذلك، حتى إنّني كنت أشعر دفعةً واحدةً كم كانت جدران سجني متقاربة. ولكنّ ذلك استمرّ بضعة أشهر. وبعد ذلك لم تعد لديّ سوى أفكار سجين. كنت أنتظر النزهةَ اليوميّة في الساحة، أو زيارةَ محاميّ. وكنت أتدبّر أمري جيّدًا فيما يبقى من وقتي. فكّرتُ كثيرًا آنذاك أنّهم لو تركوني أعيش في جذع شجرة يابسة، من غير أن يكون لديّ ما يشغلني سوى النظر في زهرة السماء فوق رأسي، لاعتدتُ ذلك شيئًا فشيئًا. كنت سأنتظر مرور طيور أو التقاءات غيوم، كما كنت أنتظر هنا ربطات عنق محاميّ التي تثير الفضول، أو كما كنت أتصبّر، في عالم آخر، حتى يوم السبت لأضمّ جسدَ ماري. وعند التفكير العميق، تبيّن لي أنّني لم أكن أعيش في جذع شجرة يابسة. كان هناك من هم أشقى منّي. وعلى كلّ حال كانت تلك فكرة أمّي، وكانت تردّدها غالبًا، وهي أنّ المرءَ يعتاد في النهاية على كلّ شيء.

ثم إنّني لم أكن أسترسل في العادة إلى هذا الحدّ. فالأشهر الأولى كانت قاسية، ولكنّ المجهود الذي كان عليّ أن أقوم به أعانني على انقضائها. فقد كان يعذّبني مثلاً اشتهاءُ امرأة، وكان ذلك طبيعيًّا لأنّني كنت شابًّا. ولم أكن أفكّر بماري بنوع خاصّ، بل كنت أفكّر بقوّة في امرأة، في نساء، في جميع النساء اللواتي عرفتهنَّ، وبجميع المناسبات التي أحببتهنَّ فيها، حتى إنّ زنزانتي امتلأتْ بجميع الوجوه وعَمَرَتْ برغباتي. وكان ذلك يفقدني توازني، ولكنّه كان يقتل الوقت. وفي النهاية كسبتُ ودّ رئيس الحرس الذي كان يصحب، في ساعة الطعام، صبيّ المطبخ. كان هو الذي حدّثني، في بادئ الأمر، عن النساء، وقال لي إنّه أوّلُ ما كان يشكو منه الآخرون. قلتُ له إنّني مثلهم، وإنّني أجد هذه المعاملة غير عادلة. لكنّه قال لي: «ولكنّهم من أجل ذلك بالذات يضعونكم في السجن». ـ «كيف، من أجل ذلك؟» ـ «أجل! الحرِّيّة هي هذه. إنّهم يحرمونكم الحرِّيّة». لم أفكّر بذلك من قبل قطّ، فوافقته، وقلت له: «هذا صحيح. وإلاَّ فأين يكون العقاب؟» ـ «أجل، إنّك تفهم الأشياء، أنت. أمّا الآخرون فلا. ولكنّهم يعزّون أنفسهم». ثم ذهب الحارس بعد ذلك.

كانت هنالك أيضًا مسألةُ السجائر. فعندما دخلتُ

السجن، أخذوا منّي حزامي، وسيور حذائي، وربطة عنقي، وكلّ ما كنت أحمله في جيوبي، وسجائري بنوع خاصّ. وحين دخلتُ زنزانتي، طلبت أن يردّوها لي. ولكنّهم قالوا لي إنّ ذلك ممنوع. كانت الأيّام الأولى قاسية جدًّا. ولعلّ هذا أكثر ما أرهقني. كنت أمصّ قطعًا من الخشب أنتزعها من لوحة سريري. وكنت طوال النهار أحسّ غثيانًا أبديًّا. ولم أكن أفهم لماذا يحرمونني من شيءٍ لا يسبّب سوءًا لأحد. فيما بعد، فهمت أنّ ذلك كان يشكّل جزءًا من العقاب أيضًا. ولكن في تلك اللحظة، كنت قد اعتدتُ أن لا أدخّن، فلم يكن هذا العقاب عقابًا بعدُ بالنسبة إليّ.

وفيما عدا هذه الإزعاجات، لم أكن تعسًا أكثر ممّا ينبغي. فالمشكلة كلّها كانت تتخلّص، مرّةً أخرى، في قتل الوقت. وانتهيتُ بالقضاء على الضجر منذ اللحظة التي تعلّمتُ فيها أن أتذكّر. كنت أحيانًا أغرق في التفكير بغرفتي، وفي الخيال، كنت أذهب من زاوية لأعود إليها وأنا أعدّد في ذهني كلّ ما يوجد في طريقي. ولقد تمّ ذلك بسرعة أوّل الأمر؛ ولكنْ، في كلّ مرّة كنت أعيد فيها التعداد، كان الوقت يطول أكثر من قبل. ذاك أنّني كنت أتذكّر كلّ قطعة أثاث، وما فيها من حاجات، وما في كلّ حاجة من تفاصيل، وما إذا كان في التفاصيل نفسها، نقش أو شقّ أو جانب فاسد، وأتذكّر ألوانها أو

حبّاتها. وفي الوقت نفسه، كنت أحاول ألّا أفقد خيط جردتي، وأن أقوم بتعداد كامل، بحيث إنّني بعد بضعة أسابيع، كان بإمكاني أن أقضي ساعات برمّتها لا أفعل سوى أن أحصي ما في غرفتي. وهكذا، كلّما أمعنت في التفكير، خرجتْ من ذاكرتي أشياءُ منسيّة. أدركت آنذاك أنّ بوسع إنسان لا يعيش إلّا يومًا واحدًا أن يعيش بلا مشقّةٍ مئةَ عام في سجن، إذ ستكون أمامه ذكرياتٌ كافيةٌ لتبعد عنه السأم. وكانت هذه مزيّة، على نحوٍ ما.

وكانت هنالك مسألةُ النوم كذلك. فقد كنت في أوّل الأمر أنام نومًا مؤرّقًا في الليل، ولا أنام في النهار قطّ. ورويدًا رويدًا، تحسّنتْ لياليّ، واستطعت أن أنام في النهار أيضًا. وأستطيع القول إنّني كنت في الأشهر الأخيرة أنام من ستّ عشرة إلى ثماني عشرة ساعة كلّ يوم، لتبقى لديّ ستُّ ساعات أقضيها في تناول الطعام وفي الحاجات الطبيعيّة، ومع ذكرياتي وقصّة التشيكوسلوفاكي.

والواقع أنّي عثرتُ، ما بين فراشي من القشّ وخشب السرير، على قصاصة جريدة قديمة ملصقة تقريبًا بالقماش، وقد اصفرّ لونها وشفّت. وكانت تسرد حادثًا كانت بدايته ناقصة، ولكنْ لا بدّ أنّه جرى في تشيكوسلوفاكيا. إنّها قصّة رجل غادر قرية تشيكيّة سعيًا وراء الثروة. وبعد خمس وعشرين سنة عاد غنيًّا بصحبة زوجة وابن. وكانت أمّه تدير فندقًا مع أختها في مسقط رأسه. ولكي يفاجئهما،

فإنّه ترك زوجته وابنه في مؤسّسة أخرى، وقصد أمّه التي لم تستطع أن تتعرّف عليه حين دخل عليها. وعلى سبيل المزاح، خطر له أن يأخذ غرفةً في الفندق، فأراها ماله. في الليل قتلتْه أمُّه وأختُها بمطرقة حديديّة لتسرقاه، ورمتا بجسمه في النهر. في الصباح، أقبلت الزوجة، وكشفتْ، من غير أن تعرف بالحادث، عن هويّة المسافر. فشنقت الأمّ نفسها، وألقت الأختُ بنفسها في بئر. كان لا بدّ لي من أن أقرأ هذه القصّة آلاف المرّات. لقد كانت، من جهة، غير محتملة الوقوع، وكانت من جهة أخرى طبيعيّة. وأيًّا ما كان، فقد كنتُ أجد أنّ المسافر قد استحقّ ما أصابه بعض الاستحقاق، وأنّ على المرء ألّا يمثّل أبدًا.

وهكذا انقضى الوقت، بين ساعات النوم، والذكريات، وقراءة حادثتي، وتناوب النور والظلمة. وكنتُ قد قرأت أنّ السجين يفقد مع الوقت فكرة الزمن. ولكنّ ذلك لم يكن ذا معنى كبير بالنسبة إليّ، إذ لم أكن بعدُ قد فهمتُ إلى أيّ حدّ يمكن أن تكون النهارات طويلة وقصيرة في وقت واحد. إنّها بلا شكّ طويلة على أن تُعاش، ولكنّها من شدّة التوتّر بحيث يطفو بعضُها على البعض الآخر. وهي في ذلك تفقد اسمها. وكانت كلمتا «أمس» أو «غدًا» الكلمتين الوحيدتين اللّتين كانتا تحتفظان في رأيي بمعنى.

حين قال لي الحارس يومًا إنّه قد انقضى عليّ في السجن خمسة أشهر، صدّقته، ولكنّني لم أفهمه. ففي نظري، كان هو بلا انقطاع اليوم نفسه الذي كان ينتشر في زنزانتي والمهمّة نفسها التي كنت أتابعها. وفي ذلك اليوم، بعد ذهاب الحارس، نظرتُ إلى نفسي في إنائي الحديديّ. وخُيّل إليّ أنّ صورتي تبقى جادّة حتى حين أحاول أن أبسمَ لها. حرّكتها أمامي، وابتسمتُ، فاحتفظتْ بهيئتها الصارمة الحزينة. كان النهار يلفظ أنفاسه، وكانت تلك الساعةَ التي لا أريد أن أتحدّث عنها، الساعةَ التي لا اسم لها، حين يرتفع ضجيجُ المساء من جميع طوابق السجن في موكب من الصمت. اقتربتُ من الكوّة، وعلى ضوء النهار الأخير، تأمّلتُ صورتي مرّة أخرى. كانت ما تزال جادّة. وما الغرابة، ما دمتُ أنا أيضًا جادًّا في تلك اللحظة؟ ولكن في الوقت نفسه، وللمرّة الأولى منذ أشهر، سمعتُ بكلّ وضوح رنّة صوتي. وعرفتُ فيه ذلك الصوت الذي كان يرنّ منذ أيّام طويلة في أذنيّ، وأدركتُ أنّني كنتُ أتحدّث وحدي طوال هذا الوقت. إذ ذاك تذكّرتُ ما كانت تقوله الممرّضة بمناسبة دفن أمّي. لا، لم يكن ثمّة من مخرج، ولا يستطيع أحد أن يتصوّر ما عساها تكون الأمسيات في السجون.

٣

أستطيع أن أقول إنّ الصيف قد حلّ سريعًا محلّ الصيف، في حقيقة الأمر. وكنت أعلم أنّ شيئًا ما جديدًا بالنسبة إليّ سيحدث مع انتشار الحرارة الأولى. كانت قضيّتي مسجّلة في الدورة الأخيرة، بمحكمة الجنايات، وستنتهي هذه الدورة في شهر حزيران. وقد افْتُتِحت المرافعات والشمس، في الخارج، في إبّانها. وكان محاميّ قد أكّد لي أنّها لن تستمرّ أكثر من يومين أو ثلاثة. وأضاف: «الواقع أنّ المحكمة ستكون مستعجلة، لأنّ قضيّتك ليست هي أهمّ قضايا الدورة. فإنّ هناك حادثة قتل أبويّ سيُنظر فيها فورًا بعد قضيّتك».

في الساعة السابعة والنصف صباحًا جاؤوا لاصطحابي، فحملتني سيّارةُ السجن إلى قصر العدل،

وأدخلني الدركيّان إلى قاعة صغيرة تنبعث منها رائحةُ الظلّ. انتظرنا، جالسين قرب باب تُسمع من خلفه أصواتٌ ونداءاتٌ وضجيجُ كراسيّ، وضروبٌ أخرى من الحركة، جعلتني أفكّر بتلك الحفلات التي تجري في الأحياء وتُنظّم فيها القاعةُ، بعد الحفلة، ليتمكّن الحضورُ من الرقص. قال لي الدركيّان إنّه كان ينبغي أن ننتظر هيئة المحكمة. وقدّم لي أحدُهما سيجارة رفضتُها، وسألني فيما بعد إذا كنت أشعر بالخوف فأجبت أن لا، بل يهمّني، على نحو ما، أن أشاهد محاكمة، إذ لم يُتَح لي قطّ في حياتي مثلُ ذلك. قال الدركي الآخر: «نعم، ولكنّ ذلك يُتعب، في نهاية الأمر».

بعد وقت طويل، دقّ جرسٌ صغير في القاعة، فنزعوا منّي الأغلال وفتحوا الباب وأدخلوني في قفص المتّهمين. كانت القاعة غاصّةً حتى لتكاد تنفجر. وبالرّغم من الستائر، كانت الشمس تتسلّل من بضعة ثقوب، والهواء خانقًا، وكانوا قد تركوا الزجاج مقفلاً. جلستُ فاحتاطني الدركيّان. في تلك اللحظة، لمحتُ صفًّا من الوجوه أمامي. كان الجميع ينظرون إليّ، فأدركتُ أنّهم القضاة، ولكنّي لا أستطيع أن أحدِّد ما يميّزهم بعضهم عن بعض. لم يأخذني إلّا انطباع واحد: أنّني أمام مقعد ترام، وجميع هؤلاء المسافرين الغُفْل يراقبون القادمَ الجديد ليلاحظوا

تفاصيله المضحكة. كنتُ أعلم جيّدًا أنّها فكرة ساذجة لأنّ ما كانوا يبحثون عنه هنا، لم يكن الشيء المضحك، وإنّما كان الجريمة. على أنّ الفرق لم يكن كبيرًا. وعلى كلّ حال، كانت تلك هي الفكرة التي راودتني.

كنت شاردًا بعض الشيء أيضًا من جرّاء هذا الجمع الغفير في تلك القاعة المقفلة. نظرتُ مرّة أخرى إلى المحكمة، فلم أميّز أيّ وجه، وأعتقد جيّدًا أنّني لم أدرك أوّلاً أنّ الجميع كانوا يتزاحمون لرؤيتي. إنّ الناس، في العادة، لم يكونوا يهتمّون بشخصي. وقد لزمني بعض الجهد لأفهم أنّني كنت سبب هذا الاضطراب كلّه. قلتُ للدركي: «ما أكثر الناس!». فأجابني أنّ ذلك يعود إلى الصحف، وأراني فريقًا بالقرب من طاولة تحت مقعد القضاة وقال لي: «ها هم أولاء». سألت: «من؟» فكرّر: «الصحف». كان يعرف واحدًا من الصحافيّين رآه في تلك اللحظة واتّجه نحونا. كان رجلاً مسنًّا، قريبًا إلى النفس، ذا وجهٍ لا يخلو من تكشير. شدّ يد الدركي بحرارةٍ كبيرة. ولاحظتُ في تلك اللحظة أنّ الجميع كانوا يتلاقون ويتنادون ويتحدّثون كأنّهم في نادٍ يشعر المرء فيه بالسعادة لأن يجد نفسه بين أناس ينتمون إلى وسط واحد. وقد شرحتُ لنفسي أيضًا الانطباع الغريب الذي أحسستُه بأنّي زائد على اللزوم، دخيلٌ بعض الشيء. ومع ذلك، فقد

توجّه الصحافي إليّ مبتسمًا. قال إنّه كان يأمل أن يجري كلّ شيء في مجراه الحسن بالنسبة إليّ. فشكرته، وأضاف: «لقد شهرنا قضيّتك بعض الشيء. وكما تعلم، فإنّ الصيف هو الموسم الأجوف بالنسبة إلى الصحف، ولم يكن ثمّة أمرٌ ذو قيمة إلّا قصّتك وقصّة القتل الأبويّ». وأومأ بعد ذلك إلى رجل قصير في الفريق الذي تركه، يشبه ابنَ عرس مسمّنًا، ويضع نظّارتين محاطتين بسواد. قال لي إنّه مبعوث خاصّ لجريدة من باريس: «الواقع أنّه لم يأت من أجل ذلك، ولكنّه كُلّف بأن يقدّم تقريرًا عن دعوى القتل الأبويّ، فطُلب إليه أن يكتب عن قضيّتك في الوقت نفسه». هنا أيضًا كدت أن أشكره. ولكنّي فكّرت بأنّ ذلك سيكون مضحكًا. أومأ لي بيده إيماءةً ودِّيَّة وتركنا، ثم انتظرنا بضعَ دقائق أخرى.

وصل محاميّ، في زيِّه، يحيط به كثير من زملائه، واتّجه نحو الصحافيّين وشدّ على بعض الأيدي. تمازحوا وضحكوا وبدا عليهم السرور التامّ، إلى أن دقّ جرسُ المحكمة فعاد الجميع إلى أمكنتهم. أقبل محاميّ عليّ فشدّ يدي ونصحني بأن أجيب باختصار على الأسئلة التي ستُطرح عليّ، وألّا آخذ أيّة مبادرة، وأن أعتمد عليه فيما عدا ذلك.

إلى يساري سمعتُ ضجّة كرسي كان أحدهم يُرجعه

إلى خلف، ورأيت رجلاً طويلاً هزيلاً يرتدي ثوبًا أحمر ويضع نظّارة على إحدى عينيه، ويجلس ثانيًا ثوبَه في عناية: كان ذلك هو المدّعي العامّ. أعلن حاجب دخول هيئة المحكمة. وفي اللحظة نفسها بدأت مروحتان كبيرتان تضجّان، ودخل ثلاثة قضاة، اثنان يرتديان السواد والثالث الأحمر، يحملون إضبارات، ومشوا بسرعة نحو المنصّة التي كانت تشرف على القاعة. جلس الرجل ذو الثوب الأحمر في الأريكة الوسطى واضعًا قلنسوته أمامه، ماسحًا رأسه الصغير الأصلع بمنديل، وأعلن أنّ الجلسة قد افتُتحتْ.

أمسك الصحافيّون بأقلامهم، وكانت تبدو عليهم جميعًا هيئةُ اللامبالاة التي لا تخلو من مكر. غير أنّ أحدهم، وكان يبدو أصغر سنًّا منهم، ويرتدي ثوبًا من الفلانيل الرمادي وربطة عنق زرقاء، ترك قلمه أمامه وجعل ينظر إليه. ولم أكن أرى في وجهه اللامتناسق بعض الشيء إلَّا عينين صافيتين جدًّا تتفحّصانني بدقّة، من غير أن تعبّرا عن شيء قابل للتحديد. أخذني شعور عجيب بأنِّي إنّما كنت أنظر إلى نفسي. ولعلّني من أجل ذلك، ولأنِّي أيضًا لم أكن أعرف عادات المكان، لم أفهم جيّدًا كلّ ما حدث بعد ذلك، لا اقتراعَ القضاة، ولا الأسئلةَ التي طرحها الرئيسُ على المحامي والمدّعي العامّ والمحكمة

(كانت جميع رؤوس القضاة تلتفت كلّ مرّة، وفي الوقت نفسه، نحو المحكمة)، ولا القراءة السريعة لنصّ الاتّهام، وفيها سمعتُ أسماءً وأمكنةً وأشخاصًا كنت أعرفهم وأسئلةً جديدةً موجّهةً إلى محاميّ.

ولكنّ الرئيس قال إنّه كان ينبغي دعوةُ شهود. فقرأ الحاجب أسماءً جذبت انتباهي. وفي قلب الجمهور الذي لم يكن له شكل إلى تلك الساعة، رأيت مدير المأوى وبوّابه، وتوماس بيريز العجوز، وريمون وماسون وسالامانو وماري، يقفون واحدًا بعد الآخر ليختفوا بعد ذلك من باب جانبي. أومأتْ ماري لي إيماءةً قلقة. وكنت ما أزال مندهشًا لأنّي لم ألمحهم قبل ذلك، حين نهض آخرُهم، سيلست، إذ نودي باسمه. رأيتُ إلى جانبه امرأة المطعم القصيرة بسترتها وهيئتها الدقيقة العازمة، وكانت تنظر إليّ نظرة كثيفة. ولكن لم يُتح لي الوقت للتفكير، إذ بدأ الرئيس الكلام. فقال إنّ المناقشات الحقيقيّة ستبدأ، وإنّه يظنّ من اللامجدي توصية الجمهور بأن يكون هادئًا. وقال إنّه هناك ليترأّس، في غير ما تحيّز، مناقشاتِ قضيّةٍ يريد أن ينظر إليها نظرة موضوعيّة، وسوف يؤخذ قرار المحكمة في روح العدالة. وهو، في جميع الأحوال، سيخلي القاعة عند أدنى حادث.

كانت الحرارة ترتفع. وكنت أرى الحضور في القاعة

يتروّحون بالصحف، مُحْدثين ضجّة خفيفة متّصلةً من الورق المدعوك. أومأ الرئيس إيماءةً، فجاء الحاجب بثلاث مراوح من القشّ المجدول، استعملها القضاةُ الثلاثة على التوالي.

وسرعان ما بدأ استجوابي. سألني الرئيس في هدوء، بل بلهجة ودّيّة، كما خُيّل إليّ. وطلبوا منّي مرّة أخرى أن أشرح هويّتي. وبالرّغم من انزعاجي فقد فكّرت في أنّ من الطبيعي جدًّا، في حقيقة الأمر، أن يُطلب منِّي ذلك، لأنّه سيكون خطيرًا أكثر ممّا ينبغي أن يُحكم على رجل بدلاً من آخر. ثم كرّر الرئيس ما قمت به، وهو يتوجّه إليّ بعد كلّ ثلاث عبارات ليسألني: «أليس كذلك؟» وقد أجبت في كلّ مرّة: «بلى، يا سيّدي الرئيس» حسب تعليمات محاميّ. وقد استغرق ذلك وقتًا طويلاً لأنّ الرئيس ضمَّن سرده كثيرًا من الدقّة. وفي هذه الأثناء كان الصحافيّون يكتبون، وكنت أحسّ بنظرات أصغرهم سنًّا ونظرات التمثال الصغير. وكان مقعد الترام مستديرًا كلّه نحو الرئيس. وقد سعل هذا، وقلب أوراق إضبارته، والتفت نحوي وهو يتروّح.

قال لي إنّ عليه أن يباشر أسئلةً ظاهرُها أنّها غريبة عن قضيّتي ولكنْ قد تمسّها عن كثب. وفهمتُ أنّه سيتحدّث أيضًا عن أمّي، وشعرتُ في الوقت نفسه كم يضايقني ذلك. سألني لماذا وضعتُ أمّي في المأوى،

فأجبتُ لأنّه كان يعوزني المال لكي أحتفظ وأعنى بها. سألني إذا كان ذلك قد كلّفني شخصيًّا. فأجبت بأنّني أنا وأمّي لم يعد أحدنا ينتظر شيئًا من الآخر، ولا من أيّ إنسان، وأنّنا ألفنا حياتينا الجديدتين. فقال الرئيس عند ذلك إنّه لم يكن يريد أن يُلحّ على هذه النقطة، وسأل المدّعي العامّ إنْ لم يكن لديه سؤال آخر يطرحه عليّ.

كان هذا الأخير يوليني نصف ظهره. وقد صرَّح، من غير أن ينظر إليّ، بأنّه يودّ، بإذنٍ من الرئيس، لو يعلم إنْ عدتُ إلى النبع وحدي وفي نيّتي أن أقتل العربي، فقلت: «لا».

ـ إذًا لماذا تسلّح؟ وما سبب العودة نحو هذا المكان بالذات؟

قلت إنّها مجرّد مصادفة. فقال المدّعي في لهجة استياء: «هذا كلّ ما نحتاجه الآن». بعد ذلك اختلط كلّ شيء، بالنسبة إليّ على الأقلّ. ولكنْ بعد بضع مشاورات أعلن الرئيس رفعَ الجلسة وإرجاءها إلى ما بعد الظهر للاستماع إلى الشهود.

لم يُتح لي الوقت للتفكير. فلقد اقتادوني، وأصعدوني سيّارة السجن، وأخذوني إلى السجن حيث أكلت. وبعد وقت قصير جدًّا، لم أحسّ فيه بأكثر من أنّني

كنتُ متعبًا، عادوا يأخذونني؛ وعاد كلّ شيء من جديد، ووجدتني في القاعة نفسها أمام الوجوه نفسها. غير أنّ الحرارة كانت أشدّ كثيرًا. وكان كلّ من القضاة والمدّعي ومحاميّ وبعض الصحافيّين مزوّدًا بمراوح من قشّ، كما لو أنّ ذلك حدث بمعجزة. وكان الصحافي الشابّ والمرأة القصيرة حاضرين أيضًا، ولكنّهما لم يكونا يتروّحان، وكانا ما يزالان ينظران إليّ من غير أن ينبسا بكلمة.

مسحتُ العرق الذي كان يغطّي وجهي. ولم أستعد وعيي بالمكان وبنفسي إلّا حين سمعتُ صوتًا ينادي مدير المأوى. سئل هل كانت أمّي تشكو منّي، فردّ بالإيجاب، ولكنّ الشكوى من الأقارب كانت عادةَ نزلائه. سأله الرئيس أن يوضح إنْ كانت تشكو أنّي وضعتها في المأوى، فردّ بالإيجاب أيضًا، ولكنّه لم يُضف هذه المرّة شيئًا آخر. وردًّا على سؤال آخر، أجاب بأنّه أصيب بالدهشة من هدوئي في يوم الدفن. فسئل عمّا كان يعنيه «بهدوئي»، وإذ ذاك نظر المدير إلى طرف حذائه وقال إنّي لم أرد أن أرى أمّي، ولم أبكِ مرّة واحدة، وقال إنّي ذهبتُ بعد الدفن فورًا من غير أن أركع أمام قبرها. وكان شيء آخر قد أدهشه أيضًا: وهو أنّ أحد عمّال موكب الدفن قال له إنّي لم أكن أعرف عمر أمّي. رانت لحظة صمت. سأله الرئيس عمّا إذا كان قد تحدّث عنّي أنا

بالذات. وإذ لم يفهم المدير السؤال قال له: «إنّه القانون». ثم سأل الرئيس المدّعي العامّ إنْ لم يكن لديه سؤال يطرحه على الشاهد، فصاح المدّعي: «أوه، لا، هذا يكفي»، بلهجة وبنظرة منتصرة وجّهها إليّ بحيث أخذتني رغبة بليدة، للمرّة الأولى منذ سنوات عديدة، في البكاء، لأنّي شعرتُ بشدّة احتقار هؤلاء الناس جميعًا لي.

وبعد أن سأل الرئيسُ القضاةَ ومحاميّ إذا كانت لديهم أسئلة يطرحونها، استمع إلى الحاجب. وقد تكرّرت بالنسبة إليه الشكليّات نفسها التي تكرّرت بالنسبة إلى الآخرين. نظر إليّ الحاجب لدى وصوله وأشاح بعينيه. وأجاب على الأسئلة التي كانت تُطرح عليه. قال إنّي لم أرد أن أرى أمّي، وإنّي دخّنت، وإنّي نمتُ، وإنّي تناولتُ قهوة بالحليب. شعرتُ آنذاك بشيء يثير القاعة كلّها، وفهمتُ للمرّة الأولى أنّي كنت مذنبًا. طُلب إلى الحاجب أن يُعيد قصّةَ القهوة بالحليب وقصّةَ السيجارة. نظر إليَّ المدّعي العامّ وفي عينيه شعاعُ سخرية. في تلك اللحظة سأل محاميَّ الحاجبَ إنْ دخّن معي. لكنّ المدّعي اعترض بعنف على السؤال: «من هو المجرم هنا، وما هذه الطرق التي تتلخّص بتلطيخ شهود الاتّهام للتقليل من قيمة الشهادات التي تبقى دامغة ساحقة!». وبالرّغم من كلّ شيء فقد طلب الرئيس إلى الحاجب أن يجيب عن السؤال،

فقال العجوز بلهجة ارتباك: «أنا أعلم جيّدًا أنِّي أخطأت. ولكنِّي لم أجرؤ على رفض السيجارة التي قدّمها إلي السيّد». سئلتُ أخيرًا عمّا إذا لم يكن لديّ ما أضيفه، فأجبت: «لا شيء، سوى أنّ الشاهد على حقّ. صحيح أنِّي قدّمت إليه سيجارة». وإذ ذاك نظر إليّ الحاجبُ في شيء من الدهشة والعرفان. تردّد، ثم قال إنّه هو الذي قدَّم إليّ القهوة بالحليب. فانتصر محاميّ بصخب وصرَّح بأنّ القضاة سيقيِّمون هذا التفصيل. ولكنّ المدّعي العامّ زعق فوق رؤوسنا قائلاً: «نعم. السادة القضاة سيقيّمون وسينتهون إلى أنّ غريبًا ما يستطيع أن يعرض قهوة، ولكنْ كان ينبغي على ابنٍ أن يرفض ذلك حين يكون أمام جسدِ المرأةِ التي أعطته الحياة». وعاد الحاجب إلى مقعده.

حين أتى دور توماس پيريز كان لا بدّ لحاجب من أن يسنده حتى الحاجز. قال پيريز إنّه عرف أمِّي، ولم يَرَني إلَّا مرّةً واحدة، يومَ الدفن. سئل عمّا فعلتُه ذلك اليوم فأجاب: «كنتُ أشعر بمشقّة أعمق ممّا ينبغي، فلم أرَ شيئًا. كانت المشقّة هي التي تمنعني من أن أرى. والحقّ أنّها كانت مشقّة كبيرة حتى أُغمي عليّ، فلم أستطع أن أرى السيّد». سأله المدّعي العامّ إنْ رآني أبكي على الأقلّ، فنفى. قال المدّعي إذ ذاك: «إنّ السادة القضاة سيقدّرون ذلك». ولكن محاميَّ غضب، فسأل پيريز بلهجة

بدت لي مبالغًا فيها: «هل رآني غير باكٍ؟» فقال پيريز «لا»، وضحك الجمهور. قال محاميّ بلهجة جازمة، وهو يشمّر أحد كمّيه: «تلك هي صورة الدعوى: كلّ شيء صحيح، وليس ثمّة ما هو صحيح!». كان وجه المدّعي العامّ مغلقًا، وكان يشكّ قلمًا في عناوين إضباراته.

بعد خمس دقائق من الاستراحة قال لي فيها محاميّ إنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، سُمع سيلست الذي ذكره الدفاع. والدفاع كان أنا. وكان سيلست يُلقي من وقت إلى آخر نظراتٍ باتّجاهي ويقلّب قبّعة طريّة بين يديه. كان يرتدي الثوب الجديد الذي سبق أن ارتداه ليذهب معي، في بعض أيّام الأحد، إلى سباق الخيل. ولكنّي أعتقد أنّه لم يستطع أن يضع ياقته لأنّه اكتفى بزرّ نحاسيّ واحد يمسك قميصه المغلق. وسُئِل إنْ كنتُ زبونه فقال: «نعم، ولكنّه كان أيضًا صديقًا لي». وأضاف ما كان يعتقده فيّ، وأجاب بأنّي كنت رجلاً. وأوضح ما كان يعنيه بذلك، مصرِّحًا بأنّ الجميع يعرفون ما يعنيه ذلك. وقال إنّه لاحظ أنّي كنت منغلقًا على ذاتي. واعترف فقط بأنّي لم أكن أتكلّم لكي لا أقول شيئًا. سأله المدّعي العامّ إنْ كنت أدفع أجرتي بانتظام. فضحك سيلست وصرَّح: «كانت هذه تفاصيل في ما بيننا». سئل أيضًا عن رأيه في جريمتي، فوضع يديه على الحاجز، وكان واضحًا أنّه قد أعدّ شيئًا

ما، وقال: «إنّ هذه مصيبة في رأيي. وجميع الناس يعرفون ما هي المصيبة. إنّها تتركك بلا دفاع. أجل. إنّها مصيبة في رأيي». كان يوشك أن يُتابع، ولكنّ الرئيس قال له إنّ ذلك حسن وإنّه يُشكر. بقي سيلست مشدوهًا بعض الشيء، ولكنّه صرَّح بأنّه يريد أن يتكلّم بعد. فطُلب إليه أن يكون موجزًا. ردّد مرّةً أخرى إنّها كانت مصيبة. فقال له الرئيس: «نعم. هذا مفهوم. والحقّ أنّنا هنا لنحكم على مصائب من هذا النوع. إنّنا نشكرك». وكما لو أنّ سيلست قد وصل إلى ذروة علمه وإرادته الطيّبة، فقد التفت إليّ. وخيّل إليّ أنّ عينيه تلتمعان وأنّ شفتيه ترتجفان. لقد بدا وكأنّه يسألني ما عساه كان يستطيع أن يفعل أيضًا. أمّا أنا فلم أقل شيئًا. ولم أقم بأيّة حركة. ولكنّها كانت المرّة الأولى في حياتي التي أخذتني فيها الرغبة في أن أعانق إنسانًا. طلب إليه الرئيس ثانية أن يغادر الحاجز. فذهب سيلست ليجلس في القاعة. ظلّ هناك، في أثناء الجلسة كلّها، مائلاً بعض الشيء إلى أمام، ومرفقاه على ركبتيه، والقبّعة بين يديه، يصغي إلى كلّ ما يُقال. دخلتْ ماري. كانت ترتدي قبّعة؛ وكانت ما تزال جميلة. ولكنّي كنت أفضِّلُها مرسلةَ الشعر. ومن مكاني كنتُ أحزر وزن نهديها الخفيف وأتعرّف من جديد إلى شفتها السُفلى التي كانت ما تزال ريّانةً بعض الشيء. كانت تبدو ثائرة الأعصاب جدًّا. سُئلت على الفور منذ متى كانت تعرفني، فحدّدت

تاريخ عملها عندنا. أراد الرئيس أن يعرف علاقاتها بي، فقالت إنّها كانت صديقتي. وأجابت على سؤالٍ آخر مؤكّدة صحّةَ إمكانيّة زواجها بي. فجأةً سألها المدّعي العامّ الذي كان يقلب إحدى الإضبارات عن تاريخ بدء علاقتنا، فحدّدت التاريخ. لاحظ المدّعي العامّ، بلهجة عدم اكتراث، أنّه يخيّل إليه أنّ ذلك كان غداةَ موت أمّي. ثم قال في شيء من السخرية إنّه لم يكن يريد أن يُلحّ على وضع دقيق، وإنّه يدرك جيّدًا وساوسَ ماري، ولكنّ واجبه (وهنا قست لهجته) كان يقتضيه أن يرتفع فوق المواضعات. وهكذا طلب إلى ماري أن تُلخّص ذلك اليوم الذي عرفتُها فيه. لم تكن ماري تريد أن تتكلّم. ولكنْ أمام إلحاح المدّعي العامّ روت قصّة حمّامنا وخروجنا إلى السينما وعودتنا إلى منزلي. قال المدّعي العامّ إنّه بعد إفادة ماري أمام التحقيق، قد راجع برامج ذلك التاريخ. وأضاف: «إنّ ماري نفسها ستقول اسم الفيلم الذي كان يُعرض آنذاك». وبالفعل أشارت بصوت يكاد يكون أبيض إلى أنّه فيلمٌ لفرنانديل. كان الصمت كاملاً في القاعة حين انتهت من حديثها. نهض المدّعي العامّ، وعلى وجهه علاماتُ الجِدّ، وقال ببطء، وبصوت وجدُته منفعلاً حقًّا، وأصبعُه ممدود نحوي: «أيّها السادة القضاة، كان هذا الرجل، في اليوم التالي لموت أمّه، يأخذ الحمّامات، ويبدأ علاقةً غير مشروعة، ويذهب ليضحك أمام فيلم

هزلي. ليس لديّ ما أقوله لكم أكثر من ذلك». وجلس في الصمت الذي كان ما يزال سائدًا، ولكنْ فجأة انفجرتْ ماري باكيةً، وقالت إنّ الأمر لم يكن كذلك، وإنّ هناك شيئًا آخر، وإنّها كانت مقسورة على أن تقول عكسَ ما كانت تفكّر به، وإنّها كانت تعرفني جيّدًا، وإنّني لم أقم بأيّ أذى. غير أنّ الحاجب، بإشارة من الرئيس، أسرع يقتادها وتوبعت الجلسة.

بعد ذلك صرَّح ماسون أنِّي كنت رجلاً شريفًا «بل هو يقول أكثر، إنِّي كنت رجلاً شجاعًا». ولكنّهم لم يكادوا يصغون إليه. وكذلك لم يكادوا يصغون إلى سالامانو حين ذكر أنِّي كنت أعامل كلبَه معاملةً طيّبة. وحين أجاب على سؤال حول أمِّي وحولي بقوله إنّه لم يكن لديّ بعد ما أقوله لأمِّي، وإنِّي لهذا السبب وضعتها في المأوى، فإنّه كان أيضًا يقول: «يجب أن تفهموا، يجب أن تفهموا». ولكنْ لم يكن يبدو على أحد أنّه يفهم. وأُخْرِج.

ثم جاء دور ريمون الذي كان الشاهدَ الأخير. وقد أومأ لي ريمون إيماءة صغيرة، وقال على الفور إنِّي كنت بريئًا. لكنّ الرئيس صرَّح بأنّ المطلوب منه ليس تقديرات، بل وقائع. ودعاه إلى أن ينتظر أسئلة لكي يُجيب. وسُئِل أن يوضّح علاقاته بالضحيّة، فانتهز ريمون الفرصة ليقول إنّ الضحيّة كان يكرهه منذ أن صفع أخته. غير أنّ الرئيس

سأله إنْ لم يكن لدى الضحيّة ما يدعوها إلى كرهه. فقال ريمون إنّ وجودي على الشاطئ كان مصادفة. فسأله المدّعي العامّ كيف اتّفق أن تكون الرسالة التي كانت أصل المأساة مكتوبةً بقلمي. فأجاب ريمون أنّها مصادفة. ردّ المدّعي العامّ أنّ المصادفة سبق أن خلّفتْ كثيرًا من التبعات السيّئة على الضمير في هذه القصّة. وأراد أن يعرف إذا كان من المصادفة أنّي لم أتدخّل حين صفع ريمون عشيقته، وإذا كان من المصادفة أنّي استُخدمتُ شاهدًا في مفوّضيّة الشرطة، وإذا كان من المصادفة أيضًا أنّ تصريحاتي أثناء تلك الشهادة قد تبدّت من قبيل المجاملة المحض. وأخيرًا سأل ريمون عن وسائل عيشه، وحين أجابه: «حانوتي»، صرّح المدّعي العامّ للقضاة بأنّ من المعروف أنّ الشاهد كان قوّادًا، وأنّني كنت شريكه وصديقه. وأنّ القضيّة مأساة خلاعيّة من أحطّ الأنواع، ويزيدها خطورةً أنّنا أمام شيطان أخلاقي. أراد ريمون أن يُدافع عن نفسه، واحتجّ محاميّ، فطلب إليهما أن يدعا المدّعي العامّ يتمّ كلامَه، فقال هذا الأخير: «إنّ ما أريد أن أضيفه قليل». وسأل ريمون: «أكان صديقك؟». فأجاب: «نعم كان رفيقي». فطرح عليّ المدّعي العامّ السؤال نفسه، فنظرتُ إلى ريمون الذي لم يُدِرْ عينيه وأجبت: «نعم». التفت المدّعي العامّ آنئذ إلى هيئة المحكمة وقال «إنّ الرجل نفسه الذي انصرف في اليوم

التالي لموت أمّه إلى أحطّ ألوان الدعارة قد ارتكب جريمة القتل لأسباب تافهة، ولكي يُصفّي قضيّة أخلاقيّة غير قابلة للوصف».

وجلس بعد ذلك. ولكنّ محاميّ صاح نافذَ الصبر، رافعًا ذراعيه بحيث كَشَفَ كمّاه، وهما يسقطان، ثنايا قميص مُنشّى: «ولكنْ أهو متّهم بأنّه دفن أمّه أم قتل رجلاً؟». ضحك الجمهور. ولكنّ المدّعي العامّ نهض مرّةً أخرى وتسربل بثوبه وصرَّح بأنّه لا بدّ للمرء من أن يؤتى بساطةَ المحامي المحترم حتى لا يشعر أنّ بين هذين الأمرين علاقةً عميقةً ومؤثّرةً وجوهريّة. وصاح بقوّة: «نعم. إنّني أتّهم هذا الرجل بأنّه قد دفن أمّه بقلب مجرم». وبدا أنّ هذا التصريح قد خلّف أثرًا كبيرًا في الجمهور. هزّ محاميّ كتفيه ومسح العرق الذي يغطّي جبينه، ولكنّه بدا متزعزعًا هو نفسُه. وقد فهمت أنّ الأمور لم تكن تسير جيّدًا بالنسبة إليّ.

رُفِعت الجلسة. وحين خرجتُ من قصر العدل لأصعد إلى السيّارة أحسست للحظة قصيرة برائحة أمسيةٍ صيفيّةٍ وبلونها. وفي عتمة سجني المترجرج استعدتُ، واحدةً فواحدة، جميعَ الضجّات المألوفة لمدينةٍ كنت أحبّها ولساعة كان يتّفق لي فيها أن أحسّني مسرورًا. استعدتها كما لو أنّها صادرةٌ من أعماق تعبي. صراخُ باعة الصحف

في الهواء الذي بدأ يسترخي، والعصافيرُ الأخيرة في الساحة، ونداءُ باعة السندويش، وأنين الترامات في منعطفات المدينة العليا، وضجّةُ السماء تلك قبل أن يتأرجح الليلُ على المرفأ، كلّ ذلك كان يؤلّف لي مرّةً أخرى مخطّطَ دربٍ لأعمى، كنت أعرفه جيّدًا قبل أن أدخل السجن. أجل، كانت تلك الساعة التي كنت منذ وقت طويل أحسّني فيها مسرورًا. وكان ما ينتظرني آنذاك إنّما هو دائمًا نوم خفيف لا أحلام فيه. ومع ذلك فإنّ شيئًا ما قد تغيّر لأنّ ما لقيته، بحلول الغد، قد كان زنزانتي. لكأنّ الدروب المألوفة المرسومة في سماوات الصيف كان يمكن أن تفضي إلى السجن كما تفضي إلى النوم البريء.

٤

يظلّ مثيرًا للاهتمام أن يسمع المرء مَن يتحدّث عنه، حتى ولو كان على مقعدِ متّهم. وأستطيع القول إنّهم قد تحدّثوا كثيرًا عنّي، وربّما عنّي أكثر ممّا تحدّثوا عن جريمتي، في أثناء مرافعات المدّعي العامّ ومحاميّ. ولكنْ هل كانت هذه المرافعات، في الحقّ، مختلفة جدًّا؟ كان المحامي يرفع ذراعيه ويرافع على أنّي مذنب، ولكنْ مع تقديم الاعتذارات. وكان المدّعي العامّ يمدّ يديه ويفضح الذنب، ولكنْ بلا اعتذارات. غير أنّ هناك شيئًا كان يُزعجني على نحوٍ غامض، فبالرّغم ممّا كان يشغلني، فقد كنتُ مغرمًا أحيانًا بالتدخّل. وكان محاميّ يقول لي آنذاك: «اسكتْ، فهذا خير لقضيّتك». وكان يبدو أنّ هذه القضيّة تُعالج، على نحو ما، خارجًا عنّي. كان كلّ شيء يجري

بلا تدخّلي. وكان مصيري يُقرَّرُ من غير أن يؤخذ رأيي. وبين الفينة والفينة كانت تأخذني الرغبة في أن أقاطع جميع الناس وأقول: «ولكن قولوا لي، من هو المتّهم؟ إنّه لمهمّ جدًّا أن يكون المرء هو المتّهم. وإنّ لديّ ما أقوله». ولكنْ، بعد إعمال التفكير، لم يكن لديّ ما أقوله. ثم إنّ عليّ أن أعترف بأنّ الذي يجده المرء في أن يشغل الناس لا يدوم طويلاً. إنّ مرافعة المدّعي العامّ، مثلاً، قد أتعبتني سريعًا، وكلّ ما أثارني أو أيقظ اهتمامي إنّما هو مقاطع أو حركات أو جمل برمّتها، ولكنّها مفصولة عن المجموع.

وإذا فهمتُ جيّدًا، فإنّ ملخّص فكرته هو أنِّي ارتكبتُ جريمتي عن سابق تصوّر وتصميم. لقد حاول على الأقلّ أن يثبت ذلك، كما كان يقول بنفسه: «سأقدّم البرهان على ذلك، أيّها السادة، وسأقدّمه مضاعفًا. أوّلاً، تحت ضوء الوقائع الباهر، وثانيًا في الشعاع المعتم الذي ستمنحني إيّاه بسيكولوجيّةُ هذه الروح المجرمة». وقد لخّص الوقائع ابتداءً من موت أمِّي. وتحدّث عن لاإحساسي، وعن جهلي بسنّ أمِّي، وعن حمّام اليوم التالي مع امرأة، والسينما وفرنانديل، وأخيرًا العودة مع ماري. وقد جهدتُ لأفهمه في تلك اللحظة، لأنّه كان يقول «عشيقته». وقد كانت بالنسبة إليّ ماري. ثم وصل إلى قصّة ريمون. وقد

وجدتُ أنّ طريقته في النظر إلى الأحداث لم يكن يعوزها الوضوح. كان ما يقوله معقولاً؛ فلقد كتبتُ الرسالة بالاتّفاق مع ريمون لأجذب عشيقته وأسلّمها إلى المعاملات السيّئة لرجل «ذي أخلاقيّة مشكوك فيها». وكنت قد استثرتُ على الشاطئ خصومَ ريمون. ولقد جُرح هذا، فطلبتُ منه مسدّسه وعدتُ وحدي لأستعمله، وثم قتلتُ العربي كما كنت قد صمّمت. ولقد انتظرتُ. (ولكي أتأكّد من أنّ المهمّة أُنجزتْ بشكل جيّد) فقد أطلقتُ أربع رصاصاتٍ أخرى بتمهّلٍ وتأكّد، وبشكل واعٍ على نحو ما.

قال المدّعي العامّ: «وهكذا أيّها السادة. لقد رسمتُ أمامكم خطّ الأحداث الذي قاد هذا الرجل إلى القتل بكلّ تبصّر ومعرفة. وأنا ألحّ على هذا، لأنّ القضيّة ليست قضيّة قتل عاديّ، فعلٍ غير واعٍ تستطيعون أن تعتبروه مخفّفًا بسبب الظروف. إنّ هذا الرجل، أيّها السادة، إنّ هذا الرجل ذكيّ، ولقد سمعتموه، أليس كذلك؟ إنّه يُحسن الإجابة. وهو يعرف قيمة الكلام، وليس بالإمكان القول إنّه فعل ما فعل من غير أن يكون مدركًا لما فعل». أمّا أنا فكنت أصغي وأسمع أنّهم كانوا يحكمون بأنّي ذكي. ولكنّي لم أكن أفهم جيّدًا كيف يُمْكن لمزايا رجلٍ عاديّ أن تصبح أعباءً ساحقةً ضدّ مذنب. هذا على الأقلّ ما كان يثير دهشتي. فكففتُ عن الإصغاء إلى أن سمعت

المدّعي العامّ يقول: «أتراه قد عبّر عن بعض الأسف والندم على الأقلّ؟ أبدًا أيّها السادة. إنّ هذا الرجل لم يبدُ مرّةً واحدةً خلال التحقيق منفعلاً بجريمته الفاحشة»!. في تلك اللحظة التفتَ إليّ ودلّ عليّ بأصبعه، مستمرًّا في إرهاقي، من غير أن أفهم في الواقع سببَ ذلك جيّدًا. لا شكّ في أنّي لم أكن أستطيع الامتناع عن الاعتراف بأنّه كان على حقّ، إذ إنّني لم أكن آسفًا كثيرًا على عملي؛ ولكنّ هذا القدر من الضراوة كان يدهشني. كنت أرغب في أن أحاول أن أشرح له بودّ، بل بما يشبه المحبّة، أنّني لم أستطع قطّ أن آسف حقًّا على شيء ما. فقد كنت دائمًا مأخوذًا بما سوف يحدث، باليوم أو بالغد، ولكن طبعًا لم أكن أستطيع، في الحالة التي وضعوني فيها، أن أتحدّث إلى أيّ إنسان بهذه اللهجة. لم يكن لي الحقّ بأن أبدو محبًّا، ولا أن أمتلك إرادة طيّبة. وقد حاولت أن أصغي بعد، لأنّ المدّعي العامّ بدأ يتحدّث عن نفسي.

قال إنّه انحنى فوقها فلم يجد شيئًا، أيّها السادة القضاة. وقال إنّه لم تكن لي في الحقيقة روح، ولا ما هو إنسانيّ. وإنّ أيّ مبدأ خلقيّ من المبادئ التي تحرس قلبَ البشر كان ممتنعًا عليّ. وأضاف: «لا شكّ في أنّنا لن نستطيع أن نأخذ عليه ذلك. فإنّ ما لا يستطيع أن يحوزه لا يسعنا أن نشتكي من افتقاره إليه. ولكنّ القضيّة

بالنسبة إلى هذا المكان هي أنّ فضيلةَ التسامح السلبيّة يجب أن تتحوّل إلى فضيلة أصعب، ولكنّها أسمى، للعدالة، لا سيّما حين يصبح فراغُ القلب، كما نكتشفه لدى هذا الرجل، هوّةً يمكن أن يسقط فيها المجتمع».

وعند ذاك تحدّث عن موقفي تجاه أمّي. وكرّر ما سبق أن قاله في أثناء المرافعات، ولكنّه كان أكثر إسهابًا منه حين تحدّث عن جريمتي، حتى إنّي في نهاية الأمر لم أعد أشعر إلّا بحرارة تلك الصبيحة. إلى أن توقّف المدّعي العامّ، وبعد لحظة صمت، استأنف بصوت منخفض جدًّا ومغلّف بالأسرار: «إنّ هذه المحكمة نفسها ستُصدر غدًا أيّها السادة حكمَها بجريمة من أفظع الجرائم: جريمة قتل أبويّ». إنّ التصوّر نفسَه، على حدّ قوله، كان يقصّر عن إدراك هذا القتل الفظيع. وكان يجرؤ على أن يؤمّل من عدالة البشر أن تعاقِبَ في غير هوادة، ولكنّه لم يخشَ أن يقول إنّ الفظاعة التي أوحتها إليه تلك الجريمة تكاد تنهزم أمام الفظاعة التي يشعرها بإزاء انعدام إحساسي. إنّ الرجل الذي قتل أمّه معنويًّا كان، على حدّ قوله أيضًا، يعزل نفسه عن المجتمع البشريّ بشكل لا يختلف عن الرجل الذي يرفع يدًا قاتلة على مَنْ وهبه الحياة. الأوّل، في جميع الحالات، كان يهيّئ لأعمال الثاني، كان يرهص بها على نحو ما ويجعلها مشروعة. وأضاف وهو يرفع صوته: «إنّني مقتنع أيّها السادة بأنّكم لن تجدوا فكرتي جريئة أكثر

ممّا ينبغي إذا قلت إنّ الرجل الجالس على هذا المقعد مذنبٌ أيضًا بجريمة القتل التي ستحكم فيها المحكمة غدًا. ويجب أن يُعاقب وفقًا لذلك». وهنا مسح المدّعي العامّ وجهه الملتمع بالعرق. وقال أخيرًا إنّ واجبه كان مؤلمًا ولكنّه سيقوم به في حزم. وصرَّح بأنّه لا شأن لي بمجتمع أحتقرُ قواعده الجوهريّة، ولا أستطيع أن ألجأ فيه إلى هذا القلب البشري الذي أجهل ردود فعله البدائيّة. وقال: «إنّني أطالبكم برأس هذا الرجل، وأنا أطالبكم بذلك وقلبي مطمئنّ. لأنّه إذا اتّفق لي خلال مهنتي التي أمارسها منذ زمن بعيد أن طالبتُ بالعقوبات القصوى، فإنِّي لم أشعر قطّ كما أشعر اليوم بأنّ هذا الواجب الشاقّ مكافأ ومتوازن ومضاء بوعي أمرٍ قوي مقدّس، وبالفظاعة التي أحسّها إزاء وجه إنسان لا أقرأ فيه إلّا ما هو شيطاني شرِّير».

حين عاد المدّعي العامّ إلى جلوسه، سادت فترة صمت طويلة بعض الشيء. كنتُ دائخًا بالحرارة والدهشة. سعل الرئيس قليلاً وسألني بصوت منخفض جدًّا عمّا إذا لم يكن لديّ بعدُ ما أضيفه. نهضتُ، ولمّا كانت بي رغبةٌ في الكلام، فقد قلت، بطريق المصادفة في حقيقة الأمر، إنِّي لم أنوِ قتل العربي. فأجاب الرئيس أنّ ذلك كان تأكيدًا، وأنّه حتى تلك اللحظة لم يكن يفهم تمامًا نظامَ دفاعي، وأنّه سيكون سعيدًا، قبل أن يستمع إلى محاميّ،

بأن يحملني على توضيح الدوافع التي أوحت إليّ بعملي. قلت بسرعة، وأنا أمزج الكلام قليلاً وأشعر بما لديّ من وضع مضحك، إنّ ذلك كان من جرّاء الشمس. انطلقتْ في القاعة ضحكاتٌ، وهزّ محاميَّ كتفيْه، بعد ذلك أُعطي الكلام له في التوّ. ولكنّه صرَّح بأنّ الوقت تأخّر، وأنّه بحاجة إلى بضع ساعات للكلام، وطلب التأجيل إلى ما بعد الظهر. فوافقت المحكمةُ على طلبه.

بعد الظهر، كانت المروحتان الكبيرتان ما تزالان تحرِّكان هواء القاعة الكثيف، وكانت مراوح القضاة الصغيرة المتعدّدة الألوان تتحرّك كلّها في اتّجاه واحد. خيّل إليّ أنّ مرافعةَ محاميّ لن تنتهي أبدًا. على أنّني أصغيتُ إليه، ذات لحظة، لأنّه كان يقول: «صحيح أنّي قتلتُ». ثم تابع في هذه اللهجة قائلاً «أنا» كلّما تحدّث عنّي. كنت شديد الدهشة. وقد ملتُ على أحد الدركيّين وسألته لماذا. فطلب إليّ أن أصمت، وأضاف بعد لحظة: «جميع المحامين يفعلون هذا». أمّا أنا فقد فكّرت أنّ في ذلك أيضًا إبعادًا لي عن القضيّة، وإحالتي إلى صفر، والحلولَ مكاني على نحوٍ ما. ولكنّي أظنّ أنّي ابتعدتُ كثيرًا عن قاعة الجلسة هذه. والحقّ أنّ محاميّ بدا لي مضحكًا. فقد رافع في قضيّة الإثارة والتحدِّي مرافعة سريعة جدًّا، ثم أخذ هو أيضًا يتحدّث عن روحي. ولكنّه بدا لي

أقلّ موهبةً، بما لا يقاس، من المدّعي العامّ. وقد قال: «لقد انحنيتُ أنا أيضًا فوق تلك الروح، ولكنّي، بعكس ممثّل العدالة العامّة المحترم، وجدتُ شيئًا ما، وبوسعي القول إنّي قرأت فيها كما أقرأ في كتاب مفتوح». وقد قرأ فيها أنّي كنت رجلاً شريفًا، وعاملاً منتظمًا، لا يكلّ ولا يتعب، أمينًا على البيت الذي كان يستخدمه، محبوبًا من الجميع، ومشاركًا الآخرين في بؤسهم. ولقد كنتُ في نظره ابنًا نموذجيًّا ساعد أمّه أطول مدّة أطاقها، وقال إنّني أمّلتُ أن يَمنح مأوًى هادئٌ المرأةَ العجوزَ الرفاهيّةَ التي لم تسمحْ وسائلي بأن أؤمّنها لها. وأضاف: «يدهشني، أيّها السادة، أن تثار مثلُ تلك الضجّة الكبيرة حول المأوى. فلئن وجب إعطاء برهان على نفع هذه المؤسّسات وعظمتها، فيجب التذكير، في آخر المطاف، بأنّ «الدولة» نفسها هي التي تمدّها بالمال». غير أنّه لم يتكلّم عن الدفن، وأحسست أنّ هذا كان ناقصًا في مرافعته. ولكن بسبب جميع هذه العبارات الطويلة، وتلك النهارات جميعها وتلك الساعات التي لا تنتهي والتي جرى فيها الحديثُ عن روحي، أحسستُ بأنّ كلّ شيء أصبح أشبهَ بماءٍ لا لون له كنت أشعر فيه بالدوار.

في النهاية، أذكر فقط أنّ بوق بائع مثلّجات قد بلغ سمعي، من الشارع وعبر كلّ مسافة القاعات والمحاكم،

فيما كان محاميّ مستمرًّا في حديثه. كانت تلاحقني، بإرهاق، ذكرياتُ حياة لا تخصّني بعد، ولكنّي وجدتُ فيها أتفَه فرحاتي وأصلبها: روائحَ صيف، والحيّ الذي أحببته، وسماءً ما تتجلّى في المساء، وضحكةَ ماري وأثوابها. كلّ ما كنت أفعله في ذلك المكان قد أخذ بخناقي، ورأيتُني أستعجلُ أمرًا واحدًا، هو أن تنتهي المرافعات وأن أعود إلى زنزانتي مع النوم. من أجل هذا كدت لا أسمع محاميّ يصيح، منهيًا مرافعته، بأنّ القضاة لن يرسلوا إلى الموت عاملاً شريفًا ضاع في لحظة شرود، وطالب بالظروف المخفّفة لجريمةٍ بدأتُ منذ الآن أجرُّ منها ندمًا أبديًّا هو أعنفُ العقاب لي. عَلّقت المحكمةُ الجلسةَ وجلس المحامي بهيئة منهكة. ولكنّ زملاءه أقبلوا عليه يشدّون يده، وسمعتُ عبارة «رائع، يا عزيزي». بل إنّ أحدهم طلب رأيي قائلاً: «أليس كذلك؟» فأومأتُ إيجابًا، ولكنّ تهنئتي لم تكن صادقة لأنّي كنت متعبًا أكثر ممّا ينبغي.

مع ذلك، كان المغيب يقترب في الخارج، وكانت الحرارة تضعف. ولقد استشعرت عذوبة المساء من ضجيج الشارع الذي كنت أسمعه. كنّا جميعًا هناك ننتظر. وما كنّا ننتظره لم يكن يعني سواي. نظرتُ في القاعة مرّة أخرى. كان كلّ شيء في الوضع الذي كان فيه في اليوم الأوّل.

لمحتُ الصحافيّ ذا السترة الرماديّة والمرأة الصنم. وأتاح لي ذلك أن أفكّر بأنِّي لم أبحث بنظري عن ماري في أثناء المحاكمة كلّها. ليس ذلك لأنّني نسيتها، بل لكثرة عملي. رأيتُها بين سيلست وريمون. فأومأتْ لي إيماءةً صغيرةً كأنّها تقول «وأخيرًا». ورأيت وجهها بعض الشيء القلق يبتسم. ولكنّي كنت أحسّ قلبي مغلقًا ولم أستطع حتى أن أجيبها على بسمتها.

عادت هيئة المحكمة. وقُرِئت على القضاة، في سرعة كبيرة، سلسلةٌ من الأسئلة. وسمعتُ عبارة «مذنب بجريمة قتل»... و«سابق تصوّر وتصميم».. و«ظروف مخفّفة». خرج القضاة، وأُخذتُ إلى القاعة الصغيرة التي سبق أن انتظرتُ فيها. وجاء محاميّ يلحق بي. كان يتكلّم بسرعة، وقد حدّثني بلهجة ثقة وودّ لم أعهدها فيه من قبل. وكان يعتقد أنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام وأنّني سأخرج من القضيّة ببضع سنوات من السجن أو الأشغال الشاقّة. سألتُه عمّا إذا كان هناك مجال للتمييز في حال صدور حكم ليس في صالحنا. فأجابني بالنفي. وكانت خطّته ألّا يستخرج نتائجَ ختاميّةً حتى لا يزعج المحكمة. وشرح لي أن لا مجال لتمييز حكم ما، هكذا، بلا مبرّر. بدا لي ذلك بدهيًّا واقتنعت بوجهة نظره. والحقّ أنّ من ينظر إلى القضيّة ببرود يجد كلّ شيء طبيعيًّا. وفي الحالة المعاكسة،

ستكون هناك أوراق كثيرة لا فائدة منها. قال لي محاميّ: «مهما يكن من أمر، فهناك الاستئناف. ولكنّي واثق من أنّ النتيجة ستكون لصالحنا».

انتظرنا طويلاً جدًّا، ثلاثةَ أرباع الساعة تقريبًا، كما أظنّ. وفي نهاية الوقت، دقّ جرس، فتركني محاميّ وهو يقول: «إنّ رئيس المحكمة سيقرأ الأجوبة. ولن يدخلوك إلّا عند قراءة نصّ الحكم». واصطفقتْ أبواب. كان ثمّة أشخاص يركضون على سلالم لا أدري إذا كانت قريبة أم بعيدة. ثم سمعتُ صوتًا بهيمًا يقرأ شيئًا في القاعة. وحين دقّ الجرس مرّةً أخرى، وفتح باب الغرفة الصغيرة، صعد إليّ صمتُ القاعة، ذلك الصمت، وذلك الشعور الفريد الذي داخلني حين لاحظتُ أنّ الصحافي أشاح بعينيه. لم أنظر في اتّجاه ماري. ولم يتح لي الوقتُ لذلك، لأنّ الرئيس قال لي بلهجة غريبة إنّ رأسي سيقطع في ساحة عامّة باسم الشعب الفرنسي. خيّل إليّ آنذاك أنّي أتعرّف إلى الشعور الذي كنت أقرأه على جميع الوجوه. وأعتقد جيّدًا أنّ ذلك كان من قبيل الاعتبار والتقدير. كان رجال الدرك لطيفين جدًّا معي. ووضع المحامي يده على معصمي. ولم أكن أفكّر بعدُ بشيء. ولكنّ الرئيس سألني إذا كان لديّ ما أضيفه. فكّرتُ. ثم قلت: «لا». فأخذوني.

٥

رفضت للمرّة الثالثة أن أستقبل الكاهن؛ فليس لديّ ما أقوله له، وليست بي رغبةٌ في الكلام، وسوف أراه جيّدًا في وقت مبكّر بعض الشيء. إنّ ما يهمّني الآن هو أن أُفلت ممّا هو ميكانيكيّ، أن أعرف إنْ كان ثمّة مَخرجٌ لما لا مفرّ منه. لقد غيّروا لي زنزانتي. من هذه الزنزانة أرى السماء، حين أكون متمدّدًا، ولا أرى سواها. جميع نهاراتي تنقضي وأنا أنظر في وجهها كيف تحوّل الألوان التي تقود النهار إلى الليل، وأنا أمرّر يديّ تحت رأسي وأنتظر مضطجعًا. ولا أدري كم مرّةً تساءلتُ عن نماذج لمحكومين بالإعدام الذين أفلتوا من الآليّة التي لا تخطئ، فاختفوا قبل التنفيذ، وحطّموا صفوفَ الشرطة. وكنتُ آخذ على نفسي أنّي لم أُعر قصص الإعدام الاهتمام الكافي.

إنّ على المرء دائمًا أن يهتمّ بهذه المسائل؛ فهو لا يدري ما يمكن أن يحدث. صحيح أنِّي كنتُ قد قرأتُ كسائر الناس تقارير في الصحف، ولكنْ لا شكّ في أنّ هناك مؤلّفاتٍ خاصّةً لم يأخذني الفضول يومًا لمراجعتها. ولعلّني، لو فعلت، لوجدتُ هناك قصصَ فرار؛ ولعلمتُ أنّ العجلة، في حالة واحدة على الأقلّ، قد توقّفت، وأنّ المصادفة والحظّ، في سبق التصوّر والتصميم هذا، قد غيّرا مرّة واحدة شيئًا ما. مرَّةً واحدةً! وأحسب أنّ هذا كان يكفيني، على نحوٍ ما. وكان قلبي يقوم بالباقي. لقد كانت الصحف تتحدّث غالبًا عن ديْنٍ مستحقّ للمجتمع. وكان لا بدّ، في نظرها، مِنْ دفعه. ولكنّ ذلك لا ينسجم والتصوّر. إنّ ما كان يُعوَّل عليه إنّما هو إمكانيّةُ فرار، قفزةٌ خارج الطقس الصارم، ركضٌ مجنونٌ يمنح جميع حظوظ الأمل. بالطبع، كان الأمل هو أن يُقتل الهارب في زاوية شارع، أثناء ركضه، برصاصة طائرة. ولكن إذا اعتبرنا كلّ شيء جيّدًا، فإنّه لم يكن ثمّة شيء يتيح لي هذا البذخ، بل كان كلّ شيء يمنعه عنّي، وكانت الميكانيكيّة تأخذني من جديد.

لم أكن أستطيع، بالرّغم من إرادتي الصادقة، أن أقبل هذا اليقين الوقح. ذلك أنّه كان ثمّة، في نهاية المطاف، تنافرٌ مضحك بين الحكم الذي بُني عليه، وبين

تكوّنه الهادئ، ابتداءً من اللحظة التي لُفظ فيها. فما دام الحكم قد تُلي في الساعة الثامنة بدلاً من الخامسة بعد الظهر، وما دام كان ممكنًا أن يكون حكمًا آخر تمامًا، ولأنّه اتُّخذ من قبل رجال يغيّرون ملابسهم، ولكونه قد عُزي إلى فكرة غير دقيقة كفكرة الشعب الفرنسي (أو الألماني أو الصيني) ـ فقد كان يخيّل إليّ جيّدًا أنّ هذا كلّه ينزع منه كثيرًا من الجدِّيّة. مع ذلك فقد كنت مضطرًّا إلى أن أعترف بأنّ نتائجه، منذ اللحظة التي اتُّخذ فيها، تصبح يقينيّة وجدّيّة كوجود هذا الجدار الذي كنت أسحق جسمي عند قدمه.

تذكّرت، في تلك اللحظات قصّة أمِّي التي ترويها لي حول أبي. لم أعرفه، وكلُّ ما عرفتُه واضحًا عن هذا الرجل هو، ربَّما ما قالته لي أمِّي عنه آنذاك: فقد ذهب يومًا يرى تنفيذ حكم الإعدام بأحد القتلة. وكان كلّما جاءته فكرةُ الذهاب لمشاهدة ذلك يُحسّ أنّه مريض. ومع ذلك فقد ذهب، وحين عاد ظلّ يقيء فترة من فترات الصبيحة. كان أبي يثير اشمئزازي قليلاً آنذاك. أمّا الآن، فإنِّي أدرك أنّ الأمر كان طبيعيًّا جدًّا. كيف لم يسبق لي أن رأيت أنْ ليس ثمّة ما هو أهمّ من حكم بالإعدام، وأنّه بالإجمال الشيء الوحيد الذي يهمّ رجلاً ما حقًّا! لئن قُدّر لي أن أخرج من هذا السجن، فسأذهب لمشاهدة جميع

أحكام الإعدام. وأحسب أنِّي كنت مخطئًا في التفكير بهذه الإمكانيّة. فإنِّي إذ أفكّر بأن أراني حرًّا ذات صباح، خلف صفّ رجال الشرطة، في الجانب الآخر؛ وإذ أفكّر بأن أكون المشاهد الذي يأتي ليرى والذي يمكن أن يقيء بعد ذلك؛ فإنّ موجة من الفرح المسمّم كانت تستخفّني. ولكنّ ذلك لم يكن قائمًا على العقل. كنت على خطأ بأن أستسلم لهذه الافتراضات لأنِّي كنت أحسّ، في الفترة التالية، بأنِّي مقرور جدًّا حتى إنِّي كنت أتجمّع تحت لحافي. كنت أصطكّ أسنانًا من غير أن أستطيع التماسك.

ولكنّ المرء لا يستطيع طبعًا أن يكون دائمًا عقلانيًّا. كنت في الماضي مثلاً أضع مشاريع قوانين. كنت أصلح العقوبات. فلاحظتُ أنّ الأمر الجوهري هو منحُ المحكوم عليه حظًّا، حظًّا واحدًا على ألف، وكان ذلك كافيًا لتسوية كثير من الأشياء. من ذلك أنّه كان يخيّل إليّ أنّ بالإمكان إيجاد مركّب كيماوي يقتل ابتلاعُه المريضَ، فكنت أفكّر: المريض: تسع مرّات على عشر. وكان هو سيعرف ذلك، وذلك هو الشرط. ذلك أنِّي لاحظتُ، وأنا أفكّر جيّدًا وأتأمّل الأشياء في هدوء، أنّ المُعيب في المقصلة هو انتفاءُ أيّ حظّ، أيّ حظّ على الإطلاق. إنّ موت المريض يكون بالإجمال مقرّرًا مرّةً وإلى الأبد. إنّها لقضيّةٌ مبتوتٌ فيها، تدبيرٌ مقرّرٌ جيّدًا، عقدٌ متّفقٌ عليه ليس من الوارد

العدول عنه. وإذا حصل خطأٌ، لظرف استثنائيّ شاذّ، أُعيدت التجربة. وينتج من ذلك، وهذا هو المزعج في الأمر، أنّ على المحكوم عليه، أن يتمنّى أن تسير الآلة سيرًا جيّدًا. أقول إنّ هذا هو الجانب المعيب. وهذا صحيح، على نحوٍ ما. ولكنّي كنت، على نحوٍ آخر، مضطرًّا إلى الاعتراف بأنّ سرّ التنظيم الجيّد إنّما يكمن هنا. وبالإجمال، فإنّ المحكوم عليه كان مضطرًّا لأن يتعاون معنويًّا. لقد كان من صالحه أن يجري كلّ شيء بلا عوائق.

وكنت مجبرًا على أن ألاحظ كذلك أنّ أفكاري في هذه المسائل لم تكن حتى ذلك الحين أفكارًا صائبة. لقد ظننتُ مدّة طويلة أنّ الوصول إلى المقصلة يتمّ بعد ارتقاء سقالةٍ وصعودِ درجات. وأحسب أنّ هذا بسبب ثورة ١٧٨٩، أعني بسبب كلّ ما لقّنوني أو أروْني إيّاه حول هذه المسائل. ولكنّي تذكّرتُ ذات صباح صورة منشورة في الصحف تمثّل عمليّة إعدام كان لها صدى كبير. والواقع أنّ المقصلة كانت موضوعة على الأرض، بأبسط شكل ممكن. وكانت أضيق جدًّا ممّا كنت أظنّ. والغريب أنّي لم ألاحظ ذلك في وقت أسبق. وكانت تلك الآلة في الصورة قد لفتت انتباهي بدقّتها ورهافتها والتماعها. إنّ المرء يتصوّر دائمًا أفكارًا مبالغًا فيها عمّا لا يعرف. وكان

لا بدّ لي من أن ألاحظ، على العكس، بأنّ كلّ شيء كان بسيطًا: إنّ الآلة هي على مستوى الرجل نفسه الذي يسير إليها. فهو ينضمّ إليها كما يسير المرء للقاء شخص. وذلك أيضًا كان مزعجًا. لقد كان بوسع المخيّلة أن تتعلّق بصورة الارتقاء نحو السقالة والصعود إلى السماء. أمّا هنا، فقد كانت الآليّة تسحق كلّ شيء: إنّ المرء يُقتل خفيةً، في شيء من الخجل وكثير من الدقّة.

ولقد كان ثمّة أيضًا أمران كنت أفكّر فيهما طوال الوقت: الفجر وطلب العفو. غير أنّي كنت أحاكم فكري وأحاول ألّا أفكّر فيهما. كنت أتمدّد، وأنظر إلى السماء وأجهد بأن أهتمّ بها. وكان الجوّ يخضرّ، ثم يهبط المساء. وكنت أبذل جهدًا إضافيًّا لأحرف مجرى أفكاري. كنت أستمع إلى خفقات قلبي. ولم أكن أستطيع أن أتصوّر أنّ بإمكان هذه الضجّة التي رافقتني منذ وقت طويل أن تكفّ. لم أوتَ يومًا مخيّلة بعيدة المدى، ومع ذلك، فقد كنت أحاول أن أتصوّر لحظةً ما يكفّ فيها خفقُ هذا القلب عن الانتقال إلى رأسي. ولكنْ عبثًا. كان الفجر أو الاستئناف هناك. وانتهى بي الأمر إلى أن أقول لنفسي إنّ أحكم الأمور هي ألّا أضغط على نفسي.

كنت أعرف أنّهم آتون عند الفجر. وبالإجمال شغلتُ لياليّ في انتظار ذلك الفجر. لم أحبّ قط أن أُفاجأ.

فحين يحدث لي شيء ما، أوثر أن أكون حاضرًا. من أجل هذا انتهى بي الأمر إلى عدم النوم إلَّا وقتًا قصيرًا في النهار، وطوال الليل أنتظر في صبر أن يولد النّورُ على زجاج السماء. وكان أشقّ شيء عليّ تلك الساعة المريبة التي كنت أعلم أنّهم اعتادوا أن ينجزوا فيها عمليّتهم. كان إذا انقضى منتصف الليل، أنتظر وأترقّب. ولم يسبق لأذني قطّ أن التقطت هذا القدْرَ الكبيرَ من الضجيج، أو ميّزتْ أصواتًا دقيقةً تلك الدقّة. والحقّ أنِّي أستطيع أن أقول إنِّي، على نحوٍ ما، كنت محظوظًا، خلال هذه الفترة كلّها، إذ إنِّي لم أسمع قطّ وَقْعَ أقدام. كانت أمِّي تقول غالبًا إنّ المرء لا يكون شقيًّا مئةً بالمئة. وكنت أقرّها على رأيها، وأنا في سجني، حين كانت السماء تتلوّن، وينسلّ نهارٌ جديد إلى زنزانتي. ذلك أنّه كان بوسعي أيضًا أن أسمع خطًى، وكان يمكن لقلبي أن ينفجر. فحتى لو كان أيُّ حفيف يدفعني إلى السقوط أمام الباب، وحتى لو كنتُ ألصق أذني بالخشب وأنتظر ملهوفًا إلى أن أستمع تنفّسي ذاتَه، فيأخذني الذعر أن أجدَه خشنًا شبيهًا بحشرجة كلب، فإنّ قلبي لم يكن، بعد كلّ حساب، لينفجر، وكنت أربح آنذاك أربعًا وعشرين ساعة أخرى.

أمّا في النّهار، فتأتيني فكرةُ طلب العفو. وأحسب أنِّي أفدت أفضل الإفادة منها. كنت أحسب حساباتي

وأحصل من أفكاري على أفضل مردود، وآخذ دائمًا أسوأَ الفروض: «أن يُرفض طلبي العفوَ». «إنّني، إذن، سأموت». وكان هذا بدهيًا، أكثر من أيّ حلّ آخر. ولكنّ الجميع يعرفون أنّ الحياة ليست جديرة بأن تُعاش. ولم أكن أجهل، في الحقيقة، أنّ الموت في الثلاثين أو في السبعين سيّان، إذ إنّ رجالاً آخرين ونساء أُخريات سيعيشون طبعًا، في الحالتين، آلافًا من السنين. وبالإجمال، لم يكن ثمّة ما هو أوضح من ذلك. فقد كنتُ دائمًا أنا مَنْ سيموت، أكان ذلك الآن أمْ بعد عشرين عامًا. غير أنّ ما أزعجني قليلاً في تفكيري، في تلك اللّحظة، تلك القفزة المريعة التي كنت أحسّها فيّ حين أتصوّر العشرين عامًا من الحياة القادمة. ولكن لم يسعْني إلّا أن أخنقَها بأن أتخيّل ما عساها تكون أفكاري بعد عشرين عامًا، حين ينبغي لي أن أبْلغ هذا الأمر. كيف يموت المرء؟ ومتى؟ هذا لا أهمّية له ما دام سيموت، وذلك بديهي. وإذنْ (والعسير هو ألّا نُسقط من الاعتبار ما تمثّله هذه «الإذن» من محاكمات وحجج فكريّة) وإذن، فقد كان لا بدّ لي من أن أقرّ رفض طلبي للعفو.

في تلك اللّحظة، في تلك اللّحظة فقط، كان لي الحقّ، إذا صحّ التعبير، أن أمنح نفسي الإذن بأن أباشر الافتراض الثاني: وهو أن أنال العفو. لقد كان المزعج

الشاقّ ضرورة تخفيف عنف ذلك الانطلاق في الدم والجسم الذي كان يخزُّ عينيّ بفرحةٍ مجنونة. كان ينبغي أن أجهد في تخفيف تلك الصرخة، وفي عقلنتها. كان ينبغي أن أكون طبيعيًّا حتى في هذا الغرض، لأجعل خضوعي في الفرض الأوّل أكثر احتمالاً وقربًا إلى المعقول. حتى إذا ما نجحتُ في ذلك، ربحتُ ساعة هدوء. غير أنّ ذلك، أيضًا، قابل للنظر والتأمّل.

في لحظة شبيهة بهذه رفضتُ مرّةً أخرى أن أستقبل الكاهن. كنت مستلقيًا وكنت أحدس باقتراب مساء الصيف عند أفق سماويّ أشقر. وكنت قد رددتُ طلبي للعفو، فكان بوسعي أن أحسّ موجاتِ دمي تسري منتظمةً فيّ. لم تكن بي حاجة إلى رؤية الكاهن. وللمرّة الأولى منذ وقت طويل، فكّرتُ بماري. كانت قد انقضت أيّام طويلة من غير أن تكتب لي. وفي ذلك المساء، فكّرتُ وقلت لنفسي إنّها ربّما تعبتْ من أن تكون عشيقةَ محكوم عليه بالإعدام. وخطرتْ لي أيضًا فكرةُ أن تكون مريضةً أو ميتةً. وكان هذا في طبيعة الأشياء. فكيف لي أن أعرف ذلك ما دام لا شيء يربطنا أو يذكّر أحدنا بالآخر، ما عدا جسمينا المنفصلين الآن؟ والحقّ أنَّ ذكرى ماري، ابتداءً من تلك اللحظة، لم تَلْقَ عندي إلّا اللاّمبالاة. فلو ماتت فستكفّ عن إثارة اهتمامي. وكنت أجد ذلك طبيعيًّا، كما كنت

أفهم جيّدًا أن ينساني الناس بعد موتي. ولم أكن أستطيع حتى القول إنّ ذلك شاقٌّ على التفكير.

في تلك اللّحظة بالذات، دخل الكاهن. وحين رأيته، أخذتني ارتجافة يسيرة. وقد لاحظ ذلك فطلب إليّ ألّا أخاف. وقلت له إنّ من عادته أن يأتي في لحظة أخرى. فأجابني بأنّها كانت زيارة ودّية تمامًا لا علاقة لها بطلبي العفوَ الذي لم يكن يعرف عنه شيئًا. جلس على فراشي ودعاني إلى الجلوس بقربه، فرفضت. وكنت مع ذلك أجد له هيئةً رقيقةً جدًّا.

ظلّ لحظة جالسًا، وساعداه على ركبتيه، محنيّ الرأس، ينظر إلى يديه، وكانتا دقيقتين عاضلتين، تذكّرانني بحيوانين نشيطين. فرك إحداهما بالأخرى فركًا بطيئًا، ثم بقي كذلك، خافضَ الرأس، وقتًا طويلاً جدًّا، حتى داخلني الشعور، ذاتَ لحظة، أنّي نسيته.

ولكنّه رفع رأسه فجأةً ونظر إليّ مواجهةً وقال: «لماذا ترفض زيارتي؟». فأجبت بأنّي لا أؤمن بالله. أراد أن يعرف إذا كنت على يقين من ذلك، فقلت إنّه لم يكن لي أن أتساءل عن هذا، لأنّها مسألة تبدو لي بلا أهميّة. فارتدّ إلى خلف واستند إلى الجدار، ويداه مبسوطتان على فخذيه. ومن غير أن يبدو عليه أنّه يكلّمني، قال ملاحظًا إنّ المرء يحسب نفسه متأكّدًا، بعض الأحيان، ولا يكون

كذلك في الواقع. لم أقل شيئًا. نظر إليّ وسألني: «ما رأيك؟»، فقلت إنّ هذا ممكن. وأيًّا ما كان، فربّما لم أكن متأكّدًا ممّا كان يهمّني حقًّا، ولكنّي كنت متأكّدًا تمامًا ممّا لم يكن يهمّني. وهذا الذي كان يحدّثني عنه، هو بالذات ما لا يهمّني.

أشاح بعينيه، وسألني، وهو لا يزال في وضعه، ألم أكن أتكلّم على هذا النحو بدافع من فرط اليأس؟ فشرحتُ له أنّني لم أكن يائسًا. كلّ ما هنالك أنّي كنت خائفًا، وكان ذلك طبيعيًا جدًّا. قال ملاحظًا: «إنّ الربّ سيساعدك إذن. وإنّ جميع الذين عرفتهم في مثل حالك كانوا يعودون إليه». فاعترفتُ بأنّ ذلك كان من حقّهم؛ وقد دلَّ ذلك أيضًا على أنّهم امتلكوا الوقتَ لذلك. أمّا أنا فلم أكن أريد أن أُساعَدَ، وكنت أفتقر إلى الوقت لأهتمّ بما لم يهمّني.

عندها، حرّك يديه حركة انزعاج، ولكنّه استقام وسوّى ثنايا ثوبه. وإذ فرغ، توجّه إليّ وهو يدعوني «يا صديقي». وهو لم يحدّثني بهذه اللّهجة، لأنّي كنتُ محكومًا بالإعدام؛ فقد كنّا جميعًا، في رأيه، محكومين بالإعدام. ولكنّي قاطعته قائلاً بأنّ الأمرين ليسا متشابهين، وإنّ ذلك، في أيّة حال، لا يمكن أن يكون تعزية. قال موافقًا: «بالتأكيد، ولكنّك ستموت فيما بعد، إنْ لم تمت

اليوم. وإذ ذاك ستُطرح القضيّةُ نفسها. فكيف تراك ستواجه تلك التجربة المريعة؟». فأجبته بأنّي سأواجهها كما أواجهها في هذه اللّحظة تمامًا.

عند هذه العبارة نهض ونظر في عينيّ باستقامة. كانت تلك لعبة أعرفها جيّدًا، وأتسلّى بها غالبًا مع إيمانويل أو سيلست. كانا بالإجمال يصرفان عينيهما. وكان الكاهن يعرف هذه اللّعبة أيضًا، وقد أدركت ذلك على الفور: لم يكن نظره ليرتجف. وكذلك صوته، فإنّه لم يرتجف حين قال لي: «أليس لديك إذن أيّ أمل، وأنت تعيش مفكّرًا بأنّك ستموت كلّيًّا؟» فأجبت: «نعم».

خفض رأسه، وعاد إلى الجلوس. قال لي إنّه يرثي لي. وحَكَمَ بأنّ ذلك يستحيل على الإنسان تحمّله. أمّا أنا فقد أحسستُ فقط أنّه بدأ يضجرني. انفتلتُ بدوري وتوجّهتُ تحت الكوّة. استندتُ بكتفي على الجدار. سمعتُ، من غير أن أتابعه، أنّه عاد يطرح عليّ الأسئلة. كان يتكلّم بصوت قلق ضاغط، ففهمتُ أنّه كان منفعلاً، فأوليتُه مزيدًا من الإصغاء.

حدَّثني عن يقينه بأن طلبي العفوَ سيُقبل، ولكنّي كنت أحمل عبءَ إثم كان يجب أن أتحرّر منه. لم تكن عدالة البشر، في رأيه، شيئًا، وكانت عدالة الله كلّ شيء. فقلت ملاحظًا إنّ الأولى هي التي حكمتْ عليّ، فأجابني أنّها،

مع ذلك، لم تغسل إثمي. قلت له إنِّي لم أكن أعرف ما هو الإثم، وكلّ ما أعلموني إيّاه أنِّي كنت مذنبًا. كنت مذنبًا، وكنت أدفع ثمن ذنبي، ولم يكن بالمستطاع أن يُطلب منِّي أكثر من ذلك. نهض من جديد، ففكّرت بأنّه إذا أراد أن يتحرّك في هذه الزنزانة الضيّقة إلى ذلك الحدّ، فلم يكن له الخيار؛ كان ينبغي أن يجلس أو ينهض.

كانت عيناي مسمّرتين في الأرض. خطا نحوي ثم توقّف، كأنّه لم يكن يجرؤ على التقدّم. نظر إلى السماء عبر القضبان الحديديّة، وقال لي: «أنت على ضلال يا بنيّ. إنّ بالإمكان أن يُطلب منك أكثر من ذلك. وربّما سيُطلب منك». ـ «ماذا؟» ـ «من الممكن أن يُطلب منك أن ترى». ـ «أرى ماذا؟».

نظر الكاهن حوله وأجاب بصوتٍ وجدتُه فجأةً متعبًا: «إنّ جميع هذه الحجارة تَرْشح ألمًا، أعرف ذلك. وأنا لم أنظر إليها قطّ من غير أن أحسّ الضيق. ولكنّني أعلم من صميم القلب أنّ أكثركم بؤسًا قد رأوا وجهًا إلٰهيًّا يخرج من ظلمتها. إنّ هذا الوجه هو ما يُطلب منك أن تراه».

انتعش قليلاً. فقلتُ إنّه انقضت أشهرٌ عليّ وأنا أنظر إلى هذه الجدران. فليس ثمّة شيء أو شخص في العالم عرفته خيرًا ممّا عرفتها. ربّما كنت، منذ وقت طويل، قد بحثت فيها عن وجه، لكنّ هذا الوجهَ كان له لونُ الشمس

ولهبُ الشهوة: كان وجهَ ماري. لقد بحثت عنه عبثًا. أمّا الآن، فقد انتهى ذلك. وفي جميع الأحوال، لم أر شيئًا ينبثق من عرق الحجارة هذا.

نظر إليّ الكاهن في شيء من الحزن. كنتُ مستندًا استنادًا كاملاً إلى الجدار، وكان النهار يسيل على وجهي. قال بضع كلمات لم أسمعها، وسألني بسرعة هل أسمح له بمعانقتي، فأجبته: «لا». انفتَلَ ومشى إلى الجدار فأمرّ عليه يده مرًّا رقيقًا وتمتم: «أإلى هذا الحدّ، تُراك تحبّ هذه الأرض؟» فلم أجب بشيء.

ظلّ وقتًا طويلاً منصرفًا عنّي. كان حضوره يُثقل عليّ ويزعجني. وكنت أوشك أن أقول له أن يذهب، وأن يتركني، حين صاح فجأةً بلهجة حادّة وهو يلتفت إليّ: «لا، لا أستطيع أن أصدّقك. إنّني متأكّد من أنّه قد اتّفق لك أن تمنّيتَ حياةً أخرى». فأجبته أنْ طبعًا، ولكنّ هذا لم يكن أهمَّ من أن يتمنّى المرء أن يكون غنيًّا أو أن يسبح بسرعة، أو أن يكون له فمٌ أجمل ممّا هو. كان من هذا القبيل نفسه. ولكنّه أوقفني وكان يريد أن يعرف كيف كنت أتصوّر تلك الحياةَ الأخرى. فصحت به: «حياة أستطيع فيها أن أتذكّر هذه الحياة». وسرعان ما أضفت بأنّ ذلك كان حَسْبي. كان يريد أن يواصل الحديث عن الله، ولكنّي تقدّمتُ نحوه وحاولت أن أشرح له مرّةً أخيرةً

أنّ الوقت الباقي لي قصير جدًّا. حاول أن يغيّر الموضوع فسألني لماذا كنت أدعوه «سيّدي» وليس «يا أبتي». أثار ذلك أعصابي وأجبته بأنّه لم يكن أبتي؛ لقد كان مع الآخرين.

قال لي وهو يضع يده على كتفي: «لا يا بنيّ إنّني معك. ولكنّك لا تستطيع أن تعرف ذلك، لأنّ لك قلبًا أعمى. سأصلّي من أجلك».

إذ ذاك، انفجر شيءٌ ما فيّ، لا أدري لماذا. فأخذتُ أصرخ ملء حنجرتي، وشتمته وطلبتُ إليه ألّا يصلّي من أجلي. أخذتُه من تلابيب جبّته، وصببتُ عليه كلّ ما في قلبي، بقفزات ممزوجة بالفرح والغضب. كان يبدو عليه أنّه موقن إلى أبعد حدود اليقين، أليس كذلك؟ ومع ذلك، فإنّ أيّ يقين لديه لم يكن يساوي شعرةَ امرأة. بل هو لم يكن متأكّدًا من أنّه في الحياة، ما دام يعيش كالميّت. أمّا أنا فقد كنت أبدو فارغَ اليدين، ولكنّي كنت متأكّدًا من نفسي، متأكّدًا من كلّ شيء، أكثرَ تأكّدًا منه، متأكّدًا من حياتي، ومن ذلك الموت الذي سيجيء. نعم، لم يكن لي إلّا هذا. ولكنّي على الأقلّ كنت أمسك بهذه الحقيقة على قدْرِ ما كانت تمسك بي. لقد كنت على حقّ، وما زلت على حقّ، كنت دائمًا على حقّ. لقد عشت على ذلك النحو، وكان بوسعي أن أعيش على نحو

آخر. ولقد فعلتُ هذا، ولم أفعل ذاك. ولم أفعل هذا الشيء، بينما فعلتُ سواه. وبعدُ؟ لكأنِّي انتظرتُ طوال الوقت هذه الدقيقة، وهذا الفجرَ الصغيرَ الذي سأكون مبرّرًا فيه. لم يكن لشيء، لم يكن لشيء على الإطلاق أهمّيّةٌ، وكنت أعرف جيّدًا لماذا. وكان هو أيضًا يعرف لماذا. فمن أعماق مستقبلي، طوال هذه الحياة اللّامعقولة التي كنت قد سُقتها، كانت نفحةٌ مظلمةٌ تصعد نحوي عبر أعوام لم تكن قد جاءت بعد، وكانت هذه النفحة تسوّي لدى مرورها كلّ ما كان يُقدَّم إليّ آنذاك في أعوام ليست أكثرَ واقعيّةً من التي كنت أعيشها. بمَ كان يهمّني موتُ الآخرين؟ أو حبُّ أمّ؟ وبمَ كان يهمّني إلٰهه، والحيواتُ التي تُختار، والمصائرُ التي تُختار، ما دام مصيرٌ واحدٌ كان ينبغي أن يختارني أنا نفسي ومعي مئاتُ الملايين من المحظوظين ذوي الامتياز الذين كانوا يقولون، مثلَه، إنّهم إخوتي؟ أتراه كان يفهم، أتراه كان يفهم؟ كان الجميع محظوظين. ولم يكن ثمّة إلّا محظوظون. سوف يُحكم أيضًا على الآخرين، ذاتَ يوم. وسيُحكم عليه هو أيضًا. فماذا كان يهمّ، لو اتُّهم بالقتل أو أُعدم، إنْ لم يبكِ في دفن أمّه؟ كان كلبُ سالامانو في قيمة زوجته. ولقد كانت المرأة الآليّة القصيرة مذنبةً على قدم المساواة مع «الباريسيّة» التي كان ماسون قد تزوّجها، أو مع ماري التي كانت ترغب في أن أتزوّجها. وماذا كان يهمّ أنّ ريمون

كان صديقي مثل سيلست الذي كان خيرًا منه؟ وماذا كان يهمّ أن تَمنح ماري اليوم فَمها لمارسو جديد؟ أتراه كان يفهم إذن، ذلك المحكوم، وأنّي من أعماق مستقبلي... كنت أختنقُ وأنا أنطق بهذا كلّه. ولكنّهم جاؤوا ينتزعون الكاهنَ من يديّ، وكان الحرس يتهدّدونني. غير أنّه هدّأهم ونظر إليّ لحظةً وهو صامت. كانت عيناه مليئتين بالدموع. وانفتل عنّي، ثم اختفى.

بعد ذهابه، عاودني الهدوء. كنتُ منهكًا، فارتميتُ على فراشي. وأظنّ أنّي قد نمت، لأنّي أفقت وعلى وجهي نجوم. كان ضجيجُ ريفٍ يصعد إليّ. وكانت روائحُ ليلٍ وأرض وملح ترطّب صدغيّ. وكان سلامُ هذا الصيف النائم يدخل فيّ رائعًا كأنّه المدّ. في تلك اللحظة، على حدود الليل، زعقتْ صفّاراتٌ تعلن بدءَ رحلاتٍ نحو عالم أصبحتُ إلى الأبد لامباليًا به. وللمرّة الأولى منذ وقت طويل، فكّرتُ في أمّي. وخُيّل إليّ أنّي كنت أفهم لماذا اتّخذتْ لها، في نهاية حياتها، «خطيبًا»، ولماذا مثّلتْ دورَ البدء من جديد. هناك، هناك أيضًا، حول هذا المأوى الذي كانت فيه حيواتٌ تنطفئ، كان المساءُ شبيهًا بهدنةٍ كئيبة. لا بدّ أنّ أمّي، وقد اقتربتْ هذا القربَ من الموت، كانت تُحسّ نفسها محرّرة ومستعدّة لأن تعيش كلّ شيء من جديد. لم يكن لأحد، لأحد على الإطلاق، الحقُّ في أن

يبكي عليها. وأنا أيضًا، أحسستني مستعدًّا لأعيش كلّ شيء من جديد. لكأنّ هذا الغضب العظيم قد طهّرني من الشرّ، وأفرغني من الأمل أمام هذا الليل المحمّل بالعلامات وبالنجوم، كنت أنفتح للمرّة الأولى على لامبالاة العالم. وإذ شعرتُ بالعالم شبيهًا بي إلى هذا الحدّ، أخويًّا في آخر الأمر، أحسستُ أنّي سبق أن كنتُ سعيدًا، وأنّي ما أزال سعيدًا. ولكي يكتمل كلُّ شيء، ولكي أُحسَّني أقلَّ توحّدًا، كان يبقى لي أن أتمنّى أن يكون هناك كثيرٌ من المشاهدين يومَ تنفيذ الإعدام بي، وأن يستقبلوني بصرخاتٍ مليئةٍ بالحقد والكراهيّة.

الكتب الصادرة عن دار الآداب

الطاعون

الموت السعيد

الغريب

المفكّرة ٣ أجزاء بالتعاون مع كلمة ـ أبو ظبي

الجزء الأوّل: لعبة الأوراق والنور

الجزء الثاني: ذهب أزرق

الجزء الثالث: عشب الأيّام